

رمسيس لبيب

هروب الطائر الأبيض

هروب الطائر الأبيض

رواية مصرية

رمسيس لبيب

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جلس إلى جانب النافذة.

الخلاء المعتم تحيط به البيوت... البيوت صـغيرة، منخفضة، ترابية اللـون، قديمـة، نائمـة الظـلال تهـوم عليها..أفنيتها وحدائقها الخلفية مهملة، تغفو فيهـا الظـلال.. التل الكبير يستلقي خلف البيوت، كتلة كبيرة مـن السـواد، فوقها ترق الظلمة، تشف قليلاً بضوء خفي بعيـد.. الأبنيـة العاليه البعيدة غارقة في الظلام، نوافذها تتناثر علـى وجـه العتمة، مستطيلات ومربعات معلقة على وجه العتمة.. أعمدة المصابيح تتفرق في الخلاء، كل منها يقف على بقعـة ظـل شبه دائرية، حفر وفجوات.. بقايا جير أبيض الجير منطفـئ البياض.. عجوز يجلس على مقعد منخفض أمام بيت قـديم، العجوز ضئيل ، محدب، قسماته لا تبين، مجرد خطوط قاتمة متداخلة ينظر إلى شيء بيده، إلى حبات مسبحة بين أصابعه، يبدو وكأنه لا يتحرك.. الشاب المعتـوه برأسـه الصـغير

البيضاوي يقف في فناء بيتهم، يرنو إلى السماء، ماذا يـرى في الظلمة؟... لا شيء.. مجرد نجوم وامضـة، مرتجفـة، بعيدة، منذ أيام لم يره في الطريق، لم يره وهو يكوم التراب في كومات صغيرة يسويها بعنايـة، مـاذا يتحـرك تحـت المصباح الذي يتوسط الخلاء؟.. صبية صغيرة، تقف علـى كومة حصى، تنحني، تنقب عن شـيء تخـرج مـن ظـل المصباح، شعرها مهوش. قدماها عاريتان، نباح كلب، نبـاح بعيد، مشروخ، وحيد، موحش، النباح يتقطع، يتنـاهى فـي البعد، ويطبق السكون، سكون شامل، عميق، خلاوي، قديم.

نسمة هواء، ظلال أوراق وأغصان الأشجار تهتـز في فتور على الجدران الترابية، ماذا ينبثق من الظلمة عنـد حافه التل؟.. شيء أصفر، صغير. يبزغ من خلـف التـل، يكبر، ينمو شيئًا فشيئًا، نصف برتقالة كبيرة، القمر!!.. قرص برتقالي كبير فوق التل، كبير وقريب بشكل غير مألوف شبه شمس شتوية، توشك على المغيب لم يرَ القمر بهذا الشكل من قبل، قلما شهد مولد القمر، وهج بلا ملامح، حـين رآه فـي ذلك المساء البعيد كان وهجا شاحبا بلا ملامح تتخلله نتـف ضبابية داكنة ثم أخذ الوهج يتكاثف ويستدير ويتحدد قرصـا

لهيبا أحمر كبيرا يستحيل إلى اللـون البرتقـالي فالأصـفر، ويصفو شيئًا فشيئًا حتى يغدو مضيئًا نقيا، كـان ذلـك منـذ سنين، كان في بداية تشكله يشبه الشمس وهي تغيب، وهـي تشرق، منذ زمن بعيد لم يرَ شروق الشـمس، يومهـا شـده الفجر من نافذة القطار، رحم كبير بحواف دامية يبزغ منـه القرص الذهبي مضيئًا، ظافرا تزفه سحابات تشتعل ذؤباتهـا في بحيرة الزرقة،كان ذاهبـا إلـى الإسـكندرية، لحظتهـا فوجيء، لحظتها انبثق بداخله شيء مضئ، ندى صغير حلو ذاب في صدره وولد انتشاء خلق فرحة عذبة لحظتها بـدت الحقول والبيوت والأشياء جديدة، كأنها مولودة لتوها، وبـدا الناس في الحقول وفي القطار بوجوه منتشـية طيبـة كـأن الجهامة والعناء أقنعة سقطت عنهم في فلول الليل المهـزوم المتقهقر، لحظتها أحس بأن الناس بسطاء وطيبـون، شـعر بالقرب منهم، بأنه يحبهم ويشفق عليهم، وأحس بـأن العـالم رحب، رحب وآهل بالأشياء الرائعة وإن مـن الجميـل أن يوجد ويعيش فيه أن يكتشفه ويتعرف على أسراره، لحظتهـا تمنى لو يسافر إلى بلاد بعيدة، بعيدة، ليرى العـالم، ليـرى الناس، ليرى بلاد لم يرها من قبل، لو أنه يشهد شروقًا مثـل

ذلك الشروق، أو أنه يستعيد تلك الأحاسيس القديمة، كثيـرا ما شهد الغروب الشمس قرص أحمر فاتر الوهج فيـه نبـل وجلال الشيوخ الفانين الذين يتـأهبون للمغيـب، السـحابات الرمادية، تكفن الشمس في قبر الأفق البعيـد، تـدفن آخـر أشعتها ثم تتشح السحابات الرمادية بالسواد. وتفـيض نفسـه بأسى مبهم، أسى قديم، وتعاوده، مواقـف بعيـدة.. مواقـف ولدت في قلبه الشجن والحزن الفراق، والفقد والآمال الخائبة والموت ليته يرى الشروق البعيد ولو لمرة واحـدة لمـاذا لا يستيقظ غدا في الفجر لعله يستعيد ذلـك الشـعور النـادر؟ الصبية الصغيرة، تبتعد عن كومة الحصى، تمشي في الخلاء تجلس على الطوار أمام أحد البيوت، تنبش بيدها الصـغيرة في التراب، وحيدة في الخلاء كائن صغير، حـي مهجـور ومنسي، بمـاذا تفكـر؟.. مـاذا يثقـل عقلهـا الصـغير؟

على الطوار أمام بيتهم يجلس في الأمسيات يلقي بالحصـى على وجه الطريق يلقيه بضيق وغيظ يجلس مع أولاد الشارع يتبادلون الحكايات، معظم الحكايات عن العفاريت واللصوص يتهامس بها الصغار وعيونهم تتسع فـي فضـول وخـوف، حكايات كثيرة.. صبي تائه يلتقي برجل ويسأله عن الطريق

إلى بيته فيبتسم له الرجل ويمشي معه وفجأة يتوقف الرجـل ويكشف عن ساقيه، ويحدق الصبي في الساقين وينفجر فـي عينيه الرعب، وتنفلت منه صرخة هالعة، وينفلـت هاربـا؛ كانت ساقا الرجل ساقي ماعز، واص يتسلل في الليـل إلـى بيت أرملة عجوز ثرية، يباغتها ويقتلهـا ويسـرق حليهـا، ينصت في فضول، يرتعش قلبه وتسرع دقاته، تجول عينـاه بتوجس ورهبة في الشارع الخالي المعـتم، ويقتـرب مـن الأولاد، يوشك أن يلتصق بهم .

- لبن

صرخة مفاجئة يطلقها بائع اللبن السمين المتكـور، يتدحرج في الطريق بوجهه الكبير الأسود وكرشـه المنـتفخ وإناء اللبن وساقه العرجاء.

يباغته النداء في المساء فيكف عن اللعب، يحدق إلى الرجل ويرتجف قلبه، يرتمي ظل قاتم على صدره وتتكـدر مشاعره ويحس بقلق غامض حزين، لسبب مـا لا يقتـرب الأولاد من الرجل، لا يشاكسونه، ولا يزفونه بالصياح كمـا يفعلون مع ذوي العاهات والنماذج الغريبة، يوما يفعلها مـع الرجل، يجلس على الطوار باكيا بعد علقة ساخنة من زوجة

أبيه، يستبد به القهر، يود لو يحطم شيئًا أو يـؤذي إنسـانًا ، وينفلت النداء، ويلوح الرجل من بعيد ممتلئًا وداكنًا في عتمة الشارع، وللفور تخطر له الفكرة فيسرع إلى البيـت، يأخـذ طربوشه ويملؤه بالتراب ويختفي في مدخل أحـد المنـازل، وتقترب صيحة الرجل فيقاوم تردده وارتعاشه ويندفع خارجا ويرمي بالطربوش بكل قوته في وجه الرجل وينطلق هاربا.

وفي الليلة التالية يتوقع أن يكف الرجل عن المـرور في شارعهم، وفجأة ينفجر النداء فينكمش في الفراش ويحكم الغطاء حول جسده، ويرهف السمع، يتوقع أن يقتحم الرجـل مسكنهم ويجره من الفراش، ويسحقه بقدميه وبدنه السمين.

لماذا كان صوت ذلك الرجل وهيئته يكدران مشاعره ويولدان في نفسه الخوف والقلق الغامض؟.. كيـف تجـرأ وفعل تلك الفعلة معه؟.. كان النداء ينقض عليه وهـو فـي الفراش فيرتعد وينكمش على نفسه، وينصت للصوت وهـو ينفجر في صمت الليل فظًا، مقبضا وتتجسد لـه الحكايـات عفاريت سوداء بعيون نارية، ولصوصا يمسكون بمدى لامعة وعيونهم تبرق في حقد، يحس بأنه ضئيل ووحيد في عـالم هائل، غامض، مأهول بكائنات غريبة، كائنات خفية معاديـة

تقترب من فراشه، يحس دبيب خطاها خافتًا وأنفاسها بالقرب منه فيخفي نفسه بالغطاء، كان يكره الليل، كان يخشى الظلام، مازال يخشاه حتى الآن، الظلام والطرق الخالية، حين يمر في شارع خالٍ تسرع قدماه ويرتجف قلبه ويتلفت حوله في توجس، يخجل من نفسه، يحاول أن يتحكم في خطوه ويصطنع الغناء بصوت مرتفع ولكن بدون فائدة، هل يخاف كل الناس كما يخاف؟.. كيف يسكن بعض الناس وسط القبور؟.. كيف يعيش الجنود وينامون في مواضع المعارك؟.. في الليل يحكم إغلاق الباب والنوافذ، يختلج قلبه ويسرع وجيبه عند سماع أقل حركة، يتوهم أن اللصوص تسللوا إلى مسكنه، وهو صغير كثيرا ما كان يسأل عن حقيقة وجود العفاريت، عمته كانت تؤكد وجود العفاريت والجان وكان يصدقها، كان يصدق كل ما تقول ذات الوجه الأسمر الطيب الودود، تقربه في المساء، وتحكي له الحكايات، تحكي أحيانًا حكايات مضحكة كان يسعد بزيارتها لهم. كان يفرح عندما تمكث في بيتهم عدة أيام تحنو عليه تدافع عنه في مواجهة زوجة أبيه، الكائن الضخم الصاخب، أحيانًا كان يغالبه الضحك عندما يراها واقفة إلى جانب أبيه الطويل،

الناحل الجاف ، القدمان الكبيرتـان تنهـالان علـى وجهـه وجسده. الملامح الكبيرة المتشنجة لا ترق لتوسلاته.. يومـا يمزق في الخفاء ثوبا من أثوابها الجديـدة يسـتخفه الفـرح والتشفي وهو يراها غاضبة ومتهورة لتلاف الثوب وعجزهـا عن اتهام أحد بعينه، بعد أيام يمزق لها ثوبـا آخـر فتهـيج وتتهمه صراحة، تطلب من أبيه أن يحضر لها على الفـور ثوبا جديدا، تصرخ تسب، ويحاول أبوه تهدئتها وهو يبسـط ذراعيه الناحلتين المرتعشتين فتتمادى في الصـراخ فيشـوح الرجل بيده، ويجلس صامتًا بعينيه المهمومتين.

بعد لحظات ينفرد بأبيه فيقول أبوه بصوت خفـيض وهو يحدق في أنامله المعروقة:

- لا تفعلها مرة أخرى.

وينظر إلى وجه أبيه المرهق الأسـيان ويستشـعر الذنب. قلما كان يراه فرحا، عندما يسعده شيء يبدو كالطفل رقيقًا وطيبا وساذجا، ودائما على شفتيه البسـمة الصـغيرة المرتعشة المعتذرة عن خطأ غير معروف، تمتـد يـد أبيـه المعروقة إلى رأسه، تتخلل أصابعها شعر رأسه دون أن يفوه بكلمة، تسعده المداعبـة الصـامتة، وينظـر إلـى الوجـه

المستطيل، الكهل، الأسمر بتجاعيده الكبيرة التي يشيع فيهـا الإرهاق وطيف الأسى، إلى العينين الوادعتين المهمـومتين ويود لو يفعل شيئًا يسعده، عندما كان ينجح في الامتحان كان أبوه يهتز منشيا، تنبسط غضون وجهـه ويخبـر الجيـران والمعارف بمناسبة وبدون مناسبة أن ولده نجح في الامتحان، وأنه سيكون طبيبا كعمه.

في الطريق يمسك أبوه بيده، ترتعش علـى شـفتيه بسمة الودود الطيبة المعتذرة عن خطأ غير معروف.

- أريدك أن تكون طبيبا كعمك، كان أملي أن أكون طبيبا ولكن والدي توفى وأنا في الثانوي.

حزن أبوه كثيرا عندما علـم أن مجمـوع درجاتـه لا يؤهله لدخول كلية الطب ، اغتم أياما، دهش ولعن أنظمـة التعليم ثم بدأ يعزي نفسه.. كل إنسان يأخذ نصيبه، المصـير بيد الله.. رب ضارة نافعة، لم يكن أبوه يستحق ذلك المصير، لم يكن يستحق تلك النهاية، نادرا ما كان يثور أو يغضب، إذا غضب اهتزت قامته الناحلة وارتجفت يداه العصبية، دون أن يرفع صوته أو تنفلت منه كلمـة جارحـة يجلـس بجلبابـه الأبيض النظيف على الكنبة العربي، يقرأ كتاب تفسير قـديم

أو يتمتم بآيات من الكتاب، ودوما صوته هادئ، خافت يوشك أن يكون همسا. الناس لبعض، لا يبقى من الإنسـان غيـر الذكرى الطيبة.. فلما كان يتحدث عن عمله، إذا جاءت سيرة العمل تكلم في ضيق وسخط عن زملائه في وزارة الصـحة الذي يعامون الناس بجفاء ويتقاضون الرشاوى بدون حياء.. المال الحرام لا ينفع.. يضيع المال الحلال.. المهم هو الستر وراحة البال.. لم يحتفظ بالستر حتى آخر أيامـه لـم يـنعم براحة البال، في الشهور الأخيرة كان شاردا وعصبيا، كـان يعاني أزمته وحده، كان يتعذب وحده، كانت زوجته تعاملـه بعصبية، تملأ البيت بالصراخ والصخيب، أو تحادث جاراتها من النافذة بصوت زاعق كثيرا ما تنفجر باكية تتهم أباه بأنه لا يحبها ولا يهتم بها لأنها لم تنجب فيرق الرجـل ويعتـذر إليها، تتردد على المشايخ والمنجمين تعمل الأحجبة وتنـذر النذور كي تنجب ابنًا، في أوقات مرضها تبدو شاكية متوجعة ويدور الرجل حولها حائرا، ومتوترا، وعاجزا.

يهمس لأبيه:

- لنخلص منها يا أبي.. لنطردها من البيت

وترف على شفتي أبيه بسمة صغيرة مبهمة ومتعبة وتنسل يده لتداعب شعر رأسه.. تشكو عمته إلى أبيه تطلب منه أن يحمي ولده فيقول إن زوجته عصبية وسريعة الغلط ولكنها طيبة القلب.

أحيانًا يسخط على أبيه، يلومه لأنه أحضر لهما هذه المرأة وفي أحيان أخرى يشفق عليه، يحس بأنه مضطر لسبب ما إلى تحمل حماقاتها وعصبيتها، كان .. ياه.. مازال يذكر الكثير من أحداث طفولته وصباه، منذ سنين لم يسترجع شيئًا من ذكرياته البعيدة، مجرد صور متفرقة، سريعة، عابرة كانت تطفو على سطح ذاكرته في مناسبات متباعدة وسرعان ما تختفي دون أن يستوقفها أو يفكر فيها.

القمر يصعد في السماء، قرض مضيء في السماء المعتمة، عتمة الخلاء تشف،تغدو ضوء خافتًا مهومًا، وحانيا، البيوت الصغيرة وادعة في حضن السكون، السكون المطبق الحنون، سكون يقرب الإنسان من نفسه يجعله يحس بوجوده الذاتي المستقل، أين الصبية الصغيرة؟.. مازالت جالسة على الطوار، هل هي بلا أهل؟.. هل هربت من زوجة أبيها ماذا يحكون لها في الأمسيات؟.. لو يجلس إلى

جوارها على الطوار، لو يضـمها بذراعـه ويحكـي لهـا الحكايات، حكايات مضحكة، لا تلك الحكايات التي سمعها في طفولته يا لرحلة الطويلة!.. خمسة وثلاثون عاما!!.. كيـف مرت كل هذه السنين؟.. كم من الأفراح كانت فيها؟ كم مـن الساعات السعيدة مرت به؟.. طفولته كانت قاسـية جدبـة، أفراحها قليلة نادرة أية أفراح حقيقية كانت فيها؟.. في البيت زوجة أبيه، وفي المدرسة الضرب والتهديد بحجرة الفئران، الحجرة ذات الباب المغلق الذي يتحاشى الأولاد الجلوس إلى جواره.. فخري أفندي بوجهـه الأسـمر المكشـر المغلـق وصلعته اللامعة وأنفه الكبير، ونظارته السمكية، وعصـاه، الغليظة، يضربه مرة ويسبه بألفـاظ بذيئـة جارحـة أمـام التلاميذ، يجلس في آخر الصف، يستخفي وراء التلاميذ حتى لا يكتشف المدرس وجوده، كثيرا ما يعرف إجابـة السـؤال الذي يحير التلاميذ لكن إصبعه يخشى أن يرتفع، حنفي أفندي القصير الضامر الأعمش، يشاكسه الأولاد، يعلقون له ذيـولاً ورقية، يشترك معهم في العبث به، لكنـه يكـون محـاذرا ومتهيبا، ومستعدا للتراجع والانكماش في أية لحظة، يضـيق بالمدرسة والمدرسين، يود لو ينقطع عن الذهاب إلى المدرسة

لكنه لا يجرؤ على مفاتحة أبيه برغبته ؛ كان يشـكو لعمتـه عندما كانت تزورهم، دائما يشكو إليها فتخفف عنه، الحضن الدافئ الذي يلوذ به في لحظات قليلة، تضمه إلى صدرها في الليل فيلتصق بها، يتسرب منها الدفء إلى بدنه، وتدغدغـه لذة غريبة، لماذا تذكر عمته وأحس بالخجل حين قـرأ تلـك الرواية التي كان بطلها يمارس الجنس مع إحدى قريباتـه؟.. يود لو يلوذ بها، لو يحتمي بها مـن الليـل، لازمـه هـذا الإحساس في صباه، الحنين إلى صدر دافئ يلجأ إليه، يـدفن فيه وجهه، امرأة الليل امرأة الليل بوجههـا الحلـو الرقيـق الشاحب المتعب، وقامتها القصيرة النحيلة وثوبها الأسود، في أمسية شتاء قبل زواجه بشهور يعود إلى مسكنه وحيدا بعـد رؤية أحد الأفلام، يحن إلى الدفء، إلى منزل مضاء وأكلـة سخية وصدر رحب ودافئ وجسد عارٍ دسم، وتبتسم له وهي واقفة أمام أحد البيوت، بسمة صغيرة خجول فيرتبك ويقـف مترددا يبتسم لها فتقترب منه وتمشي إلـى جـواره فيتجـرأ ويصطحبها إلى بيته، على حافة السرير تجلـس صـامتة، بسمتها تهتز ونظراتها تتعثر حولها، ويقترب منهـا، يجلـس إلى جوارها متعبا ومرتبكًا، والمرأة الأولى الغريبـة التـي

ينفرد بها، والعالم الغامض الخفي السحري الذي سمع عنـه كثيرا ولم يقربه أبدا يهم بأن يمد يده إلى ذراعها فلا تطاوعه يده. شيء ما في أسى وشحوب وجهها يبدد رغبتـه الوليـدة يولد في نفسه أسى مبهم، وبلا وعي يدفن وجهه في صدرها وتفيض دموعه.

ليلتها حكت له حكايتها وحكى لها وكلمها عن بعض ظروفه، ولم يفعل معها شيئًا؛ كان شيء آخر غيـر الرغبـة يشده إليها ويجعله يستعذب صحبتها شيء كالصداقة، الصداقة الحميمة، كالأخوة.

حين همت بمغادرة البيت في الصباح شـبت علـى قدميها وطبعت على خده قبلة حارة، فوجيء، جاشت مشاعره وغالبته الدموع، وود لو يستبقيها لو يتشبث بها لتعيش معـه دوما.

ليلتها تذكر الوجه الغائم القسمات، المبتسـم، البعيـد وجه أمه التي ماتت في طفولته، الوجه الذي يرف ببسـمته الحنون الصافية في لحظات الحزن والضيق وفـي لحظـات الفرح، ودوما تلوح بسمتها كأمل عذب، بعيـد، ومسـتحيل، لا يذكر قسماتها في وضوح، يقولون إنه ورث رقة ووسامة

ملامحها وطول ونحافة أبيه، يذكر أن شعرها كـان طـويلاً فاحما، كانت تمشطه وتبتسم له فيقترب منها ويمرر أناملـه الصغيرة على الشعر الغزير الناعم، يوما سافرت إلى أين؟.. القطار يطلق صفيره النائح الحزين؛ فيعتصر قلبه ألم ممض وتلوذ يده بيد أبيه يحدق في القطار حتى يختفي ثم يسير هو وأبوه واجمين، صفير القطارات في الليل يعيـد إليـه هـذا المشهد، يولد في نفسه إحساسا بالفقد واليتم والضياع، عندما حكى لهناء عن أمه قالت له إنهـا سـتكون أمـه وحبيبتـه وصديقته وزوجته، هناء.. الكائن الحبيب، العينان الباسـمتان تفيضان حبا وحنانًا، والبسمة الخجول تشـع ضـوءها فـي القسمات الحلوة الرقيقة العذبة، والصوت الأبح الدافئ، عندما رأى الموظفة الجديدة لأول مرة خفق قلبه بعنف، الخفقـات القديمة، المجنونة السعيدة، ظنها للوهلة الأولى هناء، وعندما استوعب ملامحها وجاء صوتها خاليا من البحـة الهامسـة الحبيبة أحس بالخيبة وفاض طوفـان الـذكريات والأسـى، النافذتان المتقابلتان، في النافذتين يقفان إلى ساعة متأخرة من الليل، يتحادثان بعيونهما وبسماتهما، وفي الطريق ينطلقـان معا، يضم كفها الصـغير فتلتصـق بـه وتشـرع عينيهـا

الياسمين، يقول لها يا أمي، تقول إنها كثيرا ما تحلم به؛ فيرقص شيء حلو في صدره يحس وكأنه يمتلئ ويكبر ويتشامخ، وبين الأشجار يضمها إلى صدره يذوب همسها دفئًا في عروقه، القبلة الأولى، القبلة الأولى في الظلام يقف على ناصية شارع بيتهم ينظر إليها خلسة وهي واقفة بمدخل بيتها وفجأة ينطفئ نور الحي ويبتلع الظلام كل شيء، وللفور يخطر له أن يذهب إليها ، أن يلتقي بها في المدخل المظلم كان كل ما بينهما حوارا صامتًا ومحاذرا عبر النافذتين في هدأة الليل، ويقاوم تردده وينسل إلى مدخل بيتها، ويضمها إليه ضمة سريعة واجفة ويطبع على خدها القبلة الأولى، وفي نفس اللحظة يحس بحركة في المدخل فيسارع بالفرار، كيف واتته هذه الجرأة؟..

في أول لقاء بالخارج كان يسير إلى جوارها متهيبا، كان يحس بأن كل العيون تحدق فيهما وتفضح سرهما فيتباعد عنها، وكانت هي تغض طرفها موردة الخدين، كانت المرة الأولى التي يرافق فيها فتاة في الطريق، دوما كان يتجنب الفتيات، كان يرغب فيهن ويتمنى أن تكون له واحدة جميلة لكنه كان يحس بأن فيها شيئًا محرما، شيئًا ينبغي خشيته

والبعد عنه، اللطمة القاسية، بهية، فوق سطح بيـتهم يجلـس إلى جانب بهية، تمسح دموعها بذيل ثوبها وتشكو لـه مـن ضرب أمها فيواسيها، يحاول أن يخفـف عنهـا، وتجهـش الصغيرة بالبكاء فيطوق كتفها بذراعه، وبدون تفكيـر يميـل عليها ويقبل خدها فيفاجئه الصوت الصارخ:

- بتعمل إيه يا ولد؟

وينتفض مذعورا، يرفع عينيه إلى قامة زوجة أبيـه، يطل وجهها ملتويا ومكشرا؛ فيرتعد جسده.

- بتعمل إيه يا سافل يا قليل الأدب.

وينهال الكف الكبير السمين بصفعة على وجهه.

يتملكه الذهول، ماذا فعل مع بهيـة؟.. فقـط كـان يواسيها، هل أخطأ بمحاولة التخفيف عنها؟

وتقف بهية مرتعبة يرجفها الخوف، تبدو لـه علـى الفور كشيء محرم، شيء محظور عليـه الاقتـراب منـه أو ملامسته، وتصرخ فيها زوجة أبيه فتفر الصبية باكية.

من يومها يتجنب بهية، يتحاشى بنات الجيران، وتمر السنون وتجيء هناء، الجارة الجديدة الحلوة، تفتح النافذة ذات صباح وتلتقي عيونهما فتبتسم بالتحية وتولد فرحته.

فقدها سريعا، بعد أقل من عامين، أخبرته أن أباهـا يتحدث عن تاجر ينوي التقدم لطلـب يـدها، وأن عليـه أن يسارع بخطبتها، ولكنه خجل من عرض الأمر علـى أبيـه وهو ما يزال طالبا خشي سخرية زوجة أبيـه، وبعـد أيـام اختفت هناء من النافذة، وبعد شهور انتقلت إلى بيت التاجر، أي هي الآن؟ .. أما زالت تذكره؟.. منذ أكثر مـن خمسـة عشر عاما لم يرها لمرة واحدة، كثيرا ما يجد نفسه مـدفوعا إلى المرور من أمام حجرة الموظفة الجديدة، لا تواتيه الجرأة على محادثتها، لا يستطيع أن يوسط زمـيلاً فـي التعـارف بينهما، لو أنه ..

- أحمد.

- أما زلت مستيقظة؟.. ماذا تريدين الآن؟

- أحمد.

- نعم .

- ألا تريد أن تنام؟

- لأ

- الوقت جاوز منتصف الليل .

- لن أنام الآن.

- أنت حر.

حر؟.. هل هو حقًا حر؟.. هل كان حرا في السـنين التي مرت من عمره؟.. هل هو حر الآن؟.. هل يستطيع أن يواجهها بكل مشاعره نحوها؟.. خمسة أعوام مرت على هذا الزواج اللعين، خمسة أعوام كاملة والبقية تأتي، ماذا يمكـن أن يأتي؟..

هل تكف يوما عن محاصرته؟.. هل يمكن أن يتحرر منها يوما، دائما تحاصره، تشدد الخناق عليه، ينطلـق مـع خواطره فتفاجئه بالسؤال:

- فيم تفكر؟

- في لا شيء .

- وهل يمكن التفكير في لا شيء؟

ويمسك بكتاب ويهم بالقراءة فتقف في مواجهته:

- أتضايقت مني؟

ويغالب ضيقه، ويغتصب ابتسامة:

- لا.. أبدا .

- إذن لماذا تقرأ؟

- لأتسلى.. فقط لأتسلى .

- وهل أصبح الجلوس معي يبعث على الملل؟

ويحملق فيها، يختنق صدره بالغيظ، يهم بأن يطلـق كل ما يختزنه بنفسه لكنه يبتلع الغيظ والقهر، ويسـلم نفسـه للثرثرات الفارغة عن الأهـل والمعـارف، لمـاذا تسـرَع وتزوجها؟..

أكانت العزوبه أمرا لا يمكن احتماله؟.. لماذا كانـت هذه المرأة بالذات من نصيبه هو؟.. لو أنه تزوج هناء، كان يمكن أن تكون له، أمها كانت تبـارك علاقتهمـا بالصـمت والابتسام أبوها كان صديقًا لأبيه، والده كان يتخـذ مواقـف حاسمة حين كان الأمر يتعلق بمصيره، لو أنها كانت شريكة

حياته الآن، أية سعادة وأية أفراح كان يمكـن أن يعيشـها، حين التقى بها في الحلم منذ أيام كانت بثوبها الأزرق البسيط الذي كانت ترتديه في آخر لقاء، انطلقـا معـا فـي إحـدى الحدائق، كان يضحكان ويتقافزان عبر الجـداول الصـغيرة ويداعبان الزهور، وفجأة أجهشت بالبكاء، وسألها عما يبكيها وحين همت بالكلام استيقظ على نداء زوجته، أغمض عينيه من جديد لعله يرى هناء ويعرف سبب بكائهـا ولكنـه رأى كابوسا خانقًا، رأى يدين كبيرتين سوداوين بشعر أسود طويل مسنون تطبقان على عنقه وتهمان بكتم أنفاسه.

وفي الصباح استوقفته زوجته وهو يهم بـالخروج، قالت له إنه كان يردد كلمة هناء في أثناء نومه، وحدق إليها، إلى شعرها الفاحم ورموشها الطويلة وملامحها الكبيرة وآثار حب الشباب وقال إنه لا يعرف واحدة بهذا الاسم، والتصقت به، سألته عما إذا كان يحبها، وتمثل له وجه هنـاء برقتـه وعذوبته وود أن يقول إنه لم يحبها في يوم من الأيام، وإنـه لم يحب أبدا غير امرأة واحدة، غير إنسـانة واحـدة هـي صاحبة الاسم الذي كان يلهج به في الحلم لكنـه قـال فـي عجلة:

- نعم أحبك .

وسارع بالفرار. لو أنه واجهها بكل شيء ماذا يمكن أن يحدث؟.. لماذا لا تكون لديه شجاعة البوح بمـا يحـس به؟.. لو أنه ذهب الآن وأيقظها من نومها وصفعها بالحقيقـة فماذا يمكن أن تفعل؟.. ستقول في فتور وتثاؤب كسول:

- نم.. نم فالوقت متأخر.

هل كان يمكن أن يحبها؟.. في أيام الخطوبـة كـان سعيدا بها، كان يحس بما يشبه الشوق إليها،بالرغبة فيهـا ، كان يمني نفسه بالكثير، ولحظة أن اكتشف حقيقتها اختنق كل شيء، تبددت كل الأشواق ولم تخلف غير المرارة والأسـى، ياه.. الصبية الصغيرة تتعثر.. توشك أن تنكفئ.. تتماسـك.. ها هي تتقافز، تحجل على مستطيلات رسمتها على الأرض. يبدو أنها تبتسم لنفسها، فهمي، والده الحبيب.. كم مـر مـن سنين؟. بابا.. بابا.. وتزغرد الفرحة في قلبه يخطو خطواتـه الأولى فتكبر فرحته، كائن حبيب من كيانه من صلبه، كـائن يستقطب كل آماله وأحلامه، في الليل يداعبه، يتملى ملامحه الطفلة، يمسك بكفه الصغير . بالأنامل الرقيقة اللدنة، يمررها على خده، يستعذب نعومتها، يلصق خده بخد والده وجبينـه

بجبينه، ويضع رأسه برفق على الذراع الصـغيرة، يتـذكره وهو بعيد عنه فترق مشاعره، تنساب في صدره موجات من الدفء، ويسارع بالعودة إلى البيت، يعدو فوق الدرج توقًـا إلى أن يراه، أن يأخذه في أحضانه، يشعر بأن حياته مليئـة، بأنها طيبة برغم كل شيء، وفي لحظات قليلة تختفي فرحتـه ويجدب عالمه. الصبية تنحني على الأرض، كومة صـغيرة سوداء، رجل ينعطف من جانب أحد البيوت، محني الظهـر، مثقلاً، يمضى نحو التل، يختفي في العتمة، ماذا يوجد خلـف ذاك التل؟ لم يصعد ذلك التل أبدا، لم يلق نظـرة علـى مـا وراءه، عامان وهو يسكن هنا، لماذا لم يخطر له من قبل أن يستكشف ذاك التل؟.. الشاب المعتوه مازال في فناء بيـتهم، يعقد ذراعيه وراء ظهره ويحدق في السماء، يحدق إلى القمر البعيد منذ أيام يستوقفه في الطريق ويقدم إليه ورقة بيضاء لا توجد فيها كلمة واحدة ويطلب منه أن يقرأها لـه، وقبـل أن يجد ما يمكن أن يقوله يختطف الشاب الورقة ويشوح بيده:

- أنت لا تعرف القراءة.

لم يكن قد كلمه من قبل، كان يراه أمام بيتهم يكـوم التراب في كومات صغيرة يجاهد في تسويتها، الوحيد الـذي

حادثه من أهل هذه الناحية لا يعرف أحدا هنا، فـي النهـار يصحب الأولاد الحفاة بملابسهم الرثة المتسـخة وتتصـايح النسوة في مداخل البيوت، وتنشب بينهن المشاجرات وترتفع نداءات الباعة، وفي المساء يهدأ كل شيء الحي القديم كـان مزدحما وصاخبا، الشوارع ضـيقة تطفـح دومـا بـالبرك والمستنقعات، والمقاهي كثيرة زاعقة.

- لابد أن نسكن في حي يليق بمستوانا .

تعاود الإلحاح في هذه الأيام، قبلت الانتقال إلى هنـا على أن يكون ذلك مؤقتًا، ما هو مستواهما هذا الذي تتشـدق بالحديث عنه كثيرا؟ .. تقول إنه يجب ألا نختلط بأحـد مـن سكان البيوت المحيطة حتى لا يعاملنا الناس بـدون كلفـة، تمشي في الطريق شامخة مزهوة، تنظر إلى النسوة الجالسات أمام البيوت في تأفف، تنظر إليها النسوة كما ينظـرن إلـى كائن غريب، يتهامسن عليها ويتوقف الأولاد عن اللعب عند مرورها ويتنحون عن طريقها، يحملقون فيهـا مـن بعيـد يخاطبونها بكلمة الست، لا يعرفون حقيقتها، حقيقـة السـت، تبدو بالمقارنة بنساء الحي كدمية مصنوعة ومزوقـة، دميـة بلا حياة حقيقية، لو يتعرف بـبعض النـاس هنـا، بـذلك

العجوز، لو يجلس معه في الأمسيات ويتبادلان الحديث فـي الخلاء، كثيرا ما يحن إلى صديق يصارحه بكل شيء، لـيس له صديق حقيقي واحد، شلة المقهى مجرد معارف، أنصاف أصدقاء شركاء جلسة عـابرة مهمـا طالـت أو تكـررت، مر أكثر من أسبوعين دون أن يلتقي بهم، نفـس الكلمـات ونفس الضحكات كل ليلة، أسطوانة قديمة تالفة تعيد نفسـها كل يوم، على رصيف المقهى الصغير، الضـيق، العتيـق، الحالك، عم واصف العجوز الضـئيل المكـرمش بنظارتـه المنزلقة على أنفه الكبير، يتحدث عن وظيفته السابقة كرئيس قلم، وعن ابنه الذي هاجر إلى أمريكا، والذي يتراخـى فـي مراسلته والسؤال عنه، شوقي الممتلئ المورد الأصلع يكشف عن شعر صدره الكثيف وينفجر فـي ضـحكات صـاخبة مفرقعة، يضرب نرد الطاولة بعنف ويطلق عينيه الكبيـرتين الجاحظين الشرهتين في أعقاب النساء والفتيات، يتحدث عن ولعه بالفتيات الصغيرات حديثًا شبقيا كأنه ممارسـة حسـية كاملة، وحمادة الممصوص المنطفئ نصف المسطول دائمـا، يظل صامتًا بوجهه الكابي المهموم و عينيه العكرتين، يبـدو وكأن ما بداخله قد تآكل منذ زمن بعيد إذا كشف عن أسـنانه

الكبيرة الصدئة فلكي يمضغ الكلام عن أولاده الكثيرين وعن عمله بالأرشيف.

- أنا إضبارة قديمة فيها مستندات صفراء عطنة مثل الأضابير التي أتعامل معها.

حين يفتح فمه يتوقع منه دائما أن ينطق بنفس العبارة، أربع أو خمس ساعات بطيئة متثاقلة وهم يلعبون، وهم يتصارعون، أحيانًا يضيق بالفرجة عليهم فيشاركهم اللعب فاترا ومتبلدا في أول الأمر. وأمام تحفز العجوز وسخريات شوقي يتملكه التحدي ويلتهب حماسه شيئًا فشيئًا، يقاتل، وكأنه يقاتل في المعركة الأخيرة التي يتوقف عليها مصيره، وفجأة يتبدد حماسه ويضيق بكل شيء، يحس بأنه غريب عن هذه الصحبة، غريب عن كل الأشياء المحيطة به، وفي نهاية الليل يعود متعبا وخائبا ومصدع الرأس.

كثيرا ما يستبد به الأرق فيتقلب ويتقلب في الفراش، تتتابع في عقله نتف من مشاهد اليوم بلا رابط أو معنى تأسر تفكيره أشياء صغيرة لا يأبه بها في نهاره، ويتحجر رأسه وتلتهب أعصابه، وحين ييأس من النوم يمد يده إلى النائمة إلى جواره، يوقظها ويحتال على نفسه، يعيش انفعالات

مصنوعة وارتجافات متشنجة ليرتمي بعدها هامدا ومخـدرا. فقدت تلك اللحظات أثرها، في الأيام الأخيرة تنتهي بلا رجفة لذة ولا تخلف سوى الضيق ومزيـد مـن الأرق، وكثيـرا تحرك المواجع القديمة، ما سر ذلك الأرق الذي يعبث به في الأيام الأخيرة؟..

ثمة ارتباك وتشوش بداخله، لو يبتعد عن كل شيء، لو يهرب من كل شيء، من البيت، من العمل، لـو يحصـل على إجازة طويلة ويرحل إلى مكان بعيد، مكان لا يوجد فيه عمل أو التزامات أو ثرثرات فارغة، نفس الشيء هنا أو في العمل، الأرقام الكاذبة، كل أيامه تعامل مع أرقام كاذبة، ذلك اللعين، رئيس القسم، الوجه المربع الممتلئ اللامع بصـدغيه الكبيرين وشعره الأسود المصـقول، والعينـين الواسـعتين ببياضهما البارد الصفيق، والصوت المعدني الجارح، يحـس وكأنه ببدنه السمين يرزح علـى صـدره ويكـتم أنفاسـه، ويستشعر نظرته الباردة تقتحمه وتنهش شيئًا بداخله، يهم بأن يثور، أن يسبه، أن يصفعه على صدغيه الكبيرين ولكنه دائما يبتلع غيظه ويغتصب ابتسامة يتشبث بها على شفتيه.

يستدعيه إلى مكتبه، يستقبله بترحاب بـارد مـبطن بسخرية خفيه، ببسمة ملتوية توشك أن تسقط من شفتيه.

- مبروك، أيام وتحصل على الدرجة .

ويجاهد حتى لا ينفجر، أية درجة؟.. لم يعـد يهـتم بشيء، أصبح يدرك جيدا حقيقة الآمال الكاذبـة والترقيـات التي لا تغير شيئًا، مهما حصل على درجات فسيبقى كما هو، رقما من ملايين الأرقام، رقما يتعامل مع أرقام كاذبة وزائفة، الرابعة!!.. ماذا يمكن أن تفعل؟.. عندما كان في السابعة كان يترقب السادسة بلهفة، كان يعد الشهور والأيـام، وبعـد أن حصل على السادسة ظن أن الخمسة هي الخلاص، وجـاءت الخامسة والعلاوات ونفس الحكاية تتكرر كـل شـهر، فـي النصف الأول من الشهر يكون مهموما لأن المرتب لا يكفي الالتزامات الكثيرة، وفي النصف الثاني يكون قلقًا لأن نهايـة الشهر لا تريد أن تقترب، دوما يلوح له بالدرجة ليعدو خلفها لاهثًا وذليلاً، فقدت اللعبة جدواها، لم يبـق سـوى الضـيق والعناء، والمقت لذاك الرجل الكريه، منذ أيام العمل الأولـى وهو يكرهه، خاطبه بطريقة مهينة لأنه ارتكب خطأً حسـابيا بسيطًا، سخر من مؤهله ومن الجامعة التي تعلم فيها فـاحتم

الغضب بصدره واحتد عليه وترك غرفته مهتاجـا ، يومهـا لقنه محمود المحاسب القديم الدرس الوظيفي الأول، عليك أن تحرص على ود الرؤساء أن تتغاضى عن طريقتهم الجافـة المتعالية لأنهم يملكون كل شـيء ويسـتطيعون أن يجعلـوا حياتك الوظيفية جحيما متصلاً، يومها رفض الـدرس الأول، كان ما يزال مزهوا بالمؤهل العالي، حذره محمود من فتـرة الاختبار لكنه رفض التحذير، بعدها وجد نفسه وبـلا وعـي يرقق من لهجته في محادثة رئيس القسم، ويحاول أن يبتلـع غضبه وغيظه، وانتهت فترة الاختبار وبـدأ الحـديث عـن التقارير السرية .

بسمة متوددة خبيثة ولهجة لا مبالية يطلب منـه أن يعدل بعض الأرقام في مشروع ميزانية الشركة وأن يسـقط قيد بعض المستندات حتى لا تظهر الخسائر أمام المؤسسـة، ويفاجأ ، يحدق إليه ذاهلاً فترتعش البسمة المصنوعة علـى الوجه الملتمع، ينتهز الفرصة وينفلت كلامه المحمـوم عـن الدقة والأمانة فيضحك الرجل ضحكة جافة فارغة ويربـت على كتفه. يعبر عن فخره بدقته وأمانته، وبعد لحظات تكون الأرقام قد عدلت واختفت الخسائر.

يومها أخبره محمود أنه هو الذي عدّل الأرقام، وحين استنكر تصرفه قال له إن هذا يحـدث دائمـا، وإن الأرقـام تزيف في المؤسسة أيضا، أيامها فكر في أن يكتب الشكاوى للمؤسسة والوزارة، تحمس في البداية ثم فكر فيما يمكـن أن يدخل فيه من تحقيقات ومشاكل قد تجلب عليه الأذى فتخلـى عن الفكرة وأغمض عينيه كارها، وبعد شهور بدأ يشارك في اللعبة، متهيبا ومتوجسا في أول الأمر ثـم أصـبح العبـث بالأرقام عملاً عاديا، عملاً يوميا، لكنه رفض أن يشارك في اللعبة الأخرى، لعبة رئيس القسم وحسن، لعبة التعامل مـع التجار خلف الأبواب المغلقة والأيدي التي تمتد خفية لتـدس شيئًا وتسارع بالفرار، أوشك أن ينزلق ، لا.. كانت مجـرد أزمة عابرة، أزمة كان لابد أن تنتهي، بقوة غامضة، بقوة لا يدري كنهها رفض في اللحظة الحاسمة برغم ظروفه المالية في ذلك الوقت، كانت الفكرة الخبيثة تلح عليـه وتطـارده، انبثقت لأول مرة ذات ليلة وهو يتقلب في الفراش ورفضـها واستبشعها للوهلة الأولى، لكنها أخذت تتسلل إليه وتهمس له في إغراء، لماذا لا تأخذ نصيبك؟.. الرجل سيربح بـذلك، لماذا تكون جبانًا كمحمود؟.. محمود يرفض عن خـوف لا

عن شرف، ما الفرق بين هذا الفعل وتزييف الأرقام؟.. لا.. المال الحرام لا ينفع، يضيع المال الحلال، وقد يكتشف الأمر وتكون الكارثة، كيف يتعامل مع رئيس القسـم إذا اشـترك معه؟.. كيف يدافع أحيانًا عـن كرامتـه فـي مواجهتـه؟.. ويكتشف أنه أصبح يطيل الجلوس مع رئيس القسـم، يشـكو إليه من سوء أحواله ويسأله عن طريقة يزيـد بهـا دخلـه، وينصت الخبيث باهتمام وود، يردد نصائح عامة لا جـدوى منها ويرقق من معاملته له، ويلمح أحيانًـا بسـمة مسـتخفة ساخرة على شفتي الرجل، بسمة تستفزه فيثور علـى نفسـه ويصمم على الكف عن شكايته، وتستحكم الأزمة وبلا وعي يعود إلى الحكاية والتودد من جديد، أحيانًا كـان يتمنـى أن يكاشفه الرجل ويقدم عرضه حتى يرفضه بطريقـة مهينـة جارحة، وأحيانًا يحس بأنه سيقبل العرض لو قدم له، وحـين أوشك على اليأس أخبره الرجل بطريقة لا مبالية بـأن أحـد التجار الذين يتعاملون مع الشركة سيحضر مبلغًا من المـال، وأن في ميسوره أن يقابله ويأخذ المبلغ لنفسه، وبـلا وعـي اندفع قائلاً:

- لا.. لا.. لا أستطيع

ودهش الرجل، ارتبك، وازدحمت الدماء في وجهـه ولكنه تمالك نفسه على الفور:

- لا يمكن أن أقبل الرشاوى، لا يمكن أن آخذ مـالاً حراما .

والتمعت العينان الباردتان:

- هذه ليست رشوة ، إنها مكافاة علـى بـذل جهـد خاص لتسهيل مصالح العملاء.

واندفعت من فمه كلمات لاهثة عن الشرف والأمانـة وكرامة الوظيفة فانفجر الرجل ضاحكًا وادعى أنه كان يختبر أمانته، وانطلق في موعظة عن الشرف والأخلاق.

بعدها انزاح العبء الثقيل عن صدره، تحـرر مـن أسر الفكرة المراوغة اللحوح، وتحرر في معاملته مع رئيس القسم، أصبح الرجل حذرا في التلاعب بالأرقام والتهامس مع التجار في الشهور الأخيرة، منذ أن التحق فؤاد بالقسم، منـذ أن جاء فؤاد تغيرت أشياء كثيرة دبت حياة جديدة في الحجرة العتيقة الراكدة بضوئها المعتم ومكاتبها الكالحة، كان سـكونًا هامدا وآسنًا يحط على الغرفة الواسعة ذات الجدران الداكنة،

محمود المحاسب القديم السمين بصـلعته الكبيـرة وفوديـه الأشيبين ونظارته السميكة مكب على أرقامه، تعليقاته عابرة، مبتورة، تمس العلاوات والترقيات والأسعار والمواصـلات ومتاعب الأولاد، كلامه متعجل فيه مرارة مكتومـة يائسـة، وسامية العانس الضامرة بوجهها الهضيم المنطفئ وعينيهـا الخامدتين تتحصن في الصمت، تحرك قلمهـا بآليـة فـاترة متعبة، أو تحرك يديها بأشغال الإبرة بلا وعـي، نظراتهـا متشككة هيابة هاربة، وفوزي الشاب الصغير الوسيم المتأنق قلقًا لا يستقر في مكانه، يلقي بتعليقات معادة ونكـات قلمـا يضحكون لها، أو يقف بالباب يحادث فتيات الأقسام الأخرى ويضاحكهن، وحسن الناحل بوجهه القاتم وبسـمته الشـاحبة المريبة المنفرة يقضي معظم الوقت بحجرة رئـيس القسـم، يحمل إليهم أوامره ويكون واسطة الصفقات، وهو بعيد، فـي ركنه القصي إلى جانب النافذة التي تطل على مسقط النـور المعتم يغالب الملل، يتأمل سامية، يخط في ورقـة خطوطًـا متداخلة متشابكة، ومنذ أن جاء فؤاد تغير كل شيء، تحـرك المستنقع وماج بالدوامات، سامية تتحدث، خجـول وجـديرة بالشفقة، ومحمود يحركه النشاط، يرتفع صـوته، ينصـرف

أحيانًا عن العمل ويشارك في الضحك وفوزي يسـتقر إلـى مكتبه، يقرأ الجرائد باهتمام، يناقش فؤاد بجدية ويستغرق في التفكير، ثمة علاقة جديدة بدأت تربط بينهم، تقرب كلاً منهم إلى الآخرين، أصبح لا يضيق بهم، بدأ يكتشف فيهم مزايـا طيبة، زاد مقته لرئيس القسم ولحسن، أصبح القلم يتمرد على تزييف الأرقام، أصبح يحرن ويتوقف،ثمة خجل لا عهد بـه منذ سنين يتملكه وهو يسقط قيد مستند أو يكرر قيـد آخـر، كثيرا ما تتملكه الرغبة فـي أن يثـور ويـرفض التلاعـب بالأرقام، فؤاد لا يطلب منه أحد تغيير الأرقام، رئيس القسـم يسند إليه أعمالاً لا تتصل بالميزانيـة وحسـاباتها، يخشـاه ويتربص به، رئيس القسم يستدعيه، يغلق باب مكتبه، ويدعوه إلى الجلوس، وعلى وجهه سمات الأهمية والخطورة، يتوقـع أن يخبره بأمر هام، أن يعرض عليه الاشتراك فـي صـفقة كبيرة فيتهيأ للرفض للصياح والسب، ويتنحنح الرجل، ينتقي ألفاظه في تمهل، يقول إنه يعلم بأمر المناقشات الخطيرة التي تدور بينهم في غرفة الحسابات فيتنبه كل كيانه ويختلج قلبـه تسلط العينان الباردتان على عينيـه نظـرة حـادة، متهمـة ومسيطرة فيفر بعينه بعيدا عنهما يتهمه الرجل بالاشتراك مع

فؤاد في مناقشات سياسية محرمة فتسرع دقات قلبه ويعاوده الخوف القديم ويسارع بالنفي، يقول إنه لم يشترك أبـدا فـي المناقشات، وتنبه إلى أن كلماتـه تشـي بفـؤاد فيـود لـو يسترجعها، لو يقول له إنه يشارك في النقاش وإنـه شـديد الإعجاب بفؤاد ولكن الكلمات تستعصي عليه ويغمره العرق البارد، ويلتمع الفكان الكبيران، ويميل الرجل هامسا:

- فؤاد هدام خطير، جهات الامن تراقبه .

ويحس بالدوار لا يميز في وضوح ما يقوله الرجل، تلوح البسمة الظافرة الكريهة شـامتة ومسـتخفة، ويتحـدث الرجل عن الترقية المنتظرة وميزانية الشـركة وضـرورة التعاون بينهم جميعا ويحاول أن يتماسك أن يتقوى أن ينظـر إلى الرجل في عينيه ويهاجمه لكن الرجل يقـف فيـدرك أن الوقت قد فات، في الخارج يحدق إلى الباب البني الملتمـع، يستشعر برودة قبضته وبرودة العرق، وتدفعه قدماه بعيدا.

وفي حجرة الحسابات تواجهـه العينـان الباسـمتان الذكيتان الواثقتان فيشيح بعينيه بعيدا عنهما ويجلس إلى مكتبه صامتًا. ليلتها لم ينم، عاودته الحادثة البعيـدة أبـوه ينحنـي

بقامته الناحلة على الشرطي البدين الجهم. يربت على كتفـه مستعطفًا:

- يا حضرة الشاويش

ويتضخم الشرطي، يتشامخ بقامته ليصل بهـا إلـى اللوحة السوداء المعلقة على الحائط وعليها السلاسل والقيـود الحديدة وينظر إلى أبيه بجانب عينيـه بـازدراء واسـتهانة ويتهمه بالعجز عن تربية ابنـه فيتنـدى الوجـه المغضـن المستعطف بالعرق.

مظاهرة التلاميذ هاتفة صاخبة، الأيدي والقبضـات مشرعة؛ فيهتز كيانه وتجيش مشاعره بحماس غريب لا عهد له به، يقترب من المظاهرة متهيبا. يسـير علـى هامشـها محاذرا الهتافات ضد الملك والإنجليز كـلام أبيـه السـاخط الهامس عن فساد الملك وظلم الإنجليز الهتافات تزدحم فـي صدره تشعل الدماء في عروقه وتشيع الحرارة فـي بدنـه، وبلا وعي تأخذه قدماه إلى قلب المظاهرة وينطلق صـوته صوت لم يسمعه من قبل ويرتجف جسده بهزة غريبة وتغلبه الدموع وفجأة تنقض الوجوه الجهمـة والملابـس السـوداء والخوذات الحديدية والصدادات والهراوات، وتنهال الهراوات

في قسوة على الصغار العزّل فيخرجون الطوب والحجـارة من جيوبهم وتنشب المعركة.

عندما أفرجوا عنه أمسك أبوه بيده وهـرول مبتعـدا لا شأن لنا بالمظاهرات، لا داعي للمشاكل والإهانة واكتشف أباه في موقف جديد: موقف الهارب المذعور، تذكر ما كـان يقوله أبوه عن الملك والإنجليز فتشجع وسأله مخافتًـا مـن صوته:

- ولكنك يا أبي تكره الملك والإنجليز.

وتلفت الرجل حوله في ذعر وأوسع من خطوه:

- ملناش دعوة.. ملناش دعوة

وفي البيت يظل أبوه مرتجفًا ومرتبكًا يـردد كلامـا كثيرا الحيطان لها ودان.. واحنا مالنا. اللي يتجوز أمي أقول له يا عمي.

لم يفهم الموقف تماما، لكنه أحس لأول مرة بوجـود القوة الرهيبة التي تستطيع أن ترعب أباه وتجبره على التذلل والاستعطاف، وتضرب التلاميذ الصغار بقسوة، القوة التـي

تحتشد خلف الملابس السوداء والوجوه الجامـدة والجـدران الداكنة.

من يومها أصبح ينظر إلى رجال البـوليس برهبـة خاصة، أصبح يتجنب المظاهرات، بطريقة لا شعورية كـان يبتعد عنها، أحيانًا يغالبه الفضول فيتفرج عليها مـن مسـافة بعيدة ولكنه يكون دائما متهيئًا للفرار فور ظهـور الجنـود، كانت المظاهرات تجسد أمامه انحنـاءة قامـة أبيـه علـى الشرطي الضخم المتغطرس، ومشاهد القسوة التي عومل بها التلاميذ، أبوه لم يكن يتحدث في السياسة، نادرا ما كان يفوه بكلمات قليلة، كان ذلك في لحظات الضيق وبصوت خافـت محاذر حدثه أبوه مرة عن اشتراكه فـي مظـاهرات عـام ١٩٣٠، حكى له كيف قُبِض عليه وفي أحد أقسام الشـرطة ضرب ضربا مبرحا، وأجبر على شرب البول وعلى القـول بأنه امرأة، وكيف أصبح من يومها يتجنب رجـال البـوليس ويخشى دخول مقار الشرطة حتى ولو كان معتديا عليه.

كلما مرت الأيام زاد إحساسه بوجود تلـك القسـوة وعتوها، وتغلغلها في كل مكان وتخفيها خلف قامـات غيـر تلك التي ترتدي الملابس الرسمية سمع عن شـبان صـغار

يخطفون في الليل ويختفون دون أن يعرف أحد شيئًا عـنهم لأنهم شاركوا في أمور السياسة أو تبنوا أفكـارا لا ترضـى عنها الحكومة، وعمل بنصيحة أبيه فتجنب الكلام في السياسة حتى فقد اهتمامه بها، قرأ عن رجال يجابهون السلطات بـلا خوف ويستهينون بالموت في سبيل مبادئ يؤمنون بها فأيقن أن هؤلاء الرجال كائنات خرافية يخترعها الناس الخـائفون ليتعزوا بها عن خوفهم وعجزهم، ذات ليلـة قُبِـض علـى مدرس شاب يسكن شارعهم، كان يعرفه، كان مهذبا وطيبـا ومحبوبا من أهل الشارع، وكان أبوه يثنى عليه كثيرا لأدبـه وعلمه، وفور القبض عليه أخذ أبوه يهاجمه ويتهمه بـالطيش والرعونة والانحراف، كان أبوه يهاجم الشاب وعيناه مثبتتان عليه وكأنه يقول له.. إياك أحذر.. في عام ١٩٥٦ فرح أبوه كثيرا بتأميم قناة السويس، فرح ذلك الفرح الطفولي السـاذج المضحك، وانطلق لأول مرة فـي الحـديث بـدون خـوف أو حذر، أخذ يستعيد ذكريات أيام الشباب والمظاهرات التي شارك فيها، كان في صوته رنة فخر وحماس وكأنه هو الذي أمم القناة، وفوجيء هو أيضا وانتقلت إليه عـدوى الحمـاس الذي تملك الجميع فأخذ يتابع الأخبار بلهفة، يقـرأ الجرائـد

ويستمع لنشرات الإذاعة، وحين بدأ العـدوان ورأى معظـم زملائه في الجامعة يتطوعون في الحرس الوطني خطرت له فكرة التطوع، سيطرت عليه الفكرة في فورة الحماس فقـاوم تردده وفاتح أباه في الأمر فسـارع الرجـل بـالاعتراض ، صم أذنيه عن كلامه، قال له إن مذاكرته أهم كثيـرا مـن التطوع، وإن هناك من يهمون بالدفاع عـن البلـد، وأمـام إصرار أبيه اكتفى بمتابعة الأحداث والحماس مع المتحمسين، وبعد شهور عاد إلى لامبالاته القديمة.

في يونيو عام ١٩٦٧ هزته الفاجعة، عـاش الأيـام الأولى مترقبا ومحموما، وعندما استمع إلى خطاب التاسـع من يونيو بوغت، وانفجر بقلبه حزن جارف وغريب، لسبب لا يدريه اندفع إلى الطريق، وقـف فـي الظلمـة يستشـعر الفجيعة، يحس دبيب خطر زاحف في قلب الظلام يوشك أن يكتسح كل شيء، الأهل والآمال والمستقبل والوطن، وفجـأة تناهى إلى سمعه هدير الهتافات فاندفع يعدو إلـى مصـدرها دون أن يفكر، دون أن يعي شيئًا، ووجد نفسـه فـي وسـط الجموع الصاخبة يردد الهتافـات مـن أعماقـه، هتافـات كالصراخ في وجه الظلمة، في وجه الخطر المبهم الغريـب

والدموع تزدحم في عينيه، ليلتها لم يخشَ شيئًا، لم يخشَ أية قوة ظاهرة أو خفية، وتمنى لو يحمل على الأعناق كما يحمل الآخرون، ليلتها لم ينم، وفي اليوم التالي خرج فـي مسـيرة العاملين بالشركة.

يومها وقف رئيس القسم متباعدا مهندما علـى درج مرتفع، تفرج لحظات على تجمع العاملين وعلى شفتيه بسمة ساخرة ثم اختفى، يومها شارك في المسيرة محمود وفـوزي وسامية محمود يحمل بيديه لافتة كبيـرة ويـردد الهتافـات وسامية وسط عاملات الشركة تشـوح بـذراعها النحيلـة، وفوزي فوق الأكتاف يبادر بالهتافات، يومها أحس بـالقرب منهم جميعا، أحس بأنهم أصدقاء له، أصدقاء قدامى كان دوما يحبهم، يومها شعر برباط غريب يربطه بكل الناس، بعلاقـة حميمة توحده بهم في كيان كبير، وهائل، وتوحده بـالأرض، وبالبيوت وبكل ما يحيط به.

ما الذي تفجر في أعماقه في تلك الليلة البعيدة؟.. أين كان يكمن ذلك الطوفان من الحماس والأسى الـذي اجتاحـه وبدد خوفه القديم؟.. هل كان في أعماقه كل هذا الحب لوطنه دون أن يدري؟.. هل توجد علاقة خفية ولكنها قوية وقاهرة

تربطه ببلاده وأهلها؟.. دوما كان الكلام عن الوطن والتضحية في سبيله مجرد شعارات يرددها بطريقة آلية في المدرسـة، أو يقرؤها في الجرائد دون أن تعني شيئًا بالنسبة إليه، كان لا يفهم كيف يمكن أن يضحي إنسان بحياته عن رضى من أجل حرية وسعادة وطنه، ليلتها كان مسـتعدا لعمـل أي شـيء، أن يحارب، أن يموت في سبيل بلاده، بعد تلك الأيام كـان الهم يسيطر عليه وهو يتابع الأحداث، كان نوع خاص مـن الحزن يرسب في قلبه ويثقله ويجعل تصرفاته أكثـر تـوترا وضيقًا، بعدها شارك في أحاديث السياسة، كان لا يقوى على السكوت عندما يدور الحديث عن الهزيمة لكن كلماته كانـت عامة لا تصدر أحكامـا ولا تـدين أحـدا، وشـيئًا فشـيئًا فتر اهتمامه واستعاد صمته، استعاد طريقته القديمـة فـي قراءة الصحف التي يشتريها، فوزي تمر عيناه على العناوين الكبيرة بعجلة ودون توقع لشيء جديد، يتوقف قلـيلاً عنـد صفحة الحوادث والمقالات ذات العناوين المثيـرة ويختـتم جولته السريعة بوقفة مع الكلمات المتقاطعـة، وجـاء فـؤاد فأحدث الدوامات.

جاء بكلمات جريئة عن أخطاء كبيرة، عـن فسـاد وسرقات، عن أناس يثرون بالتلاعب في سـاعات، وعـن عمال وفلاحين فقراء وموظفين صغار مطحونين، في البداية كان لا يعير كلامه أي التفات، كان ينصرف عنه، كان يسخر منه بداخله فقد عرف الكثير عن حماس المـوظفين الجـدد وأصواتهم المرتفعة، عن حماس الشـبان الصـغار العـابر والموقوت الذي يتبدد سريعا عندما يحاصر بالأرقام الصماء والأرقام الزائفة والتعليمـات العتيقـة وأحـلام العـلاوات والترقيات وبرود وسخرية الرؤساء، ظنه في البداية واحـدا منهم، وظل يترقب النهاية لفـت نظـره هـدوءه وبسـاطته وطريقته الرزينة والواثقة، استوقفه فيه شيء جاد، شيء أكبر من سنه لكنه كان موقنًا من المصير المحتوم، ويوما بعد يوم أخذت الكلمات تستوقفه، وتشد انتباهه، أخذت أذناه تستيقظان وتلتقطان بعض الحديث خصوصـا حـين يتنـاول أحـوال الموظفين الصغار وعبوديتهم وعناءهم، كان يقاوم فضـوله ويحرص على التباعد وإظهار اللامبالاة، وبلا وعـي نمـا فضوله. وبدأت الأسئلة تنبثق في عقله، أسئلة جديدة لا عهـد له بها، وأسئلة قديمة عبرت به منذ سنين ومر بها مـتعجلاً،

وبدأت بعض الأسئلة تنفلت منه في استحياء وتردد، وجاءت كلمات فؤاد لتكشف له أمور بدت للوهلة الأولى بدهية كـان ينبغي أن يكتشفها وحده، وألقت ضوءا كاشفًا علـى مواقـف عاشها وأشياء مر بها دون أن يتمهل أمامها أو يفكر فيهـا ، وتضاءل الحذر فبدأ يناقش ويفكر ويجادل قليلاً لكنـه ظـل يحتفظ بالنتائج لنفسه، بدأ يتعامل مع الصحف بطريقة جديدة، يقرؤها كل يوم ويشتريها في عطلته، يقرأ عناوينها وأخبارها باهتمام، يفتش عما يؤكد كلام فؤاد أو ينفيه، أحيانًا كان يتمنى أن يكون كل كلام فؤاد صادقًا، وأحيانًا أخرى كان يتمنى أن يكون كاذبا ومختلقًا، أدرك منذ البداية أن ما يقوله فؤاد يمكن أن يجلب الأخطار على من يتفوه به أو يناقشه، لكن فضـوله وتشوقه إلى معرفة المزيد يغالبه، والأسئلة الجديـدة تتوالـد وتحاصره، بعد حديث رئيس القسم كان يسارع بترك الحجرة فور أن يشرع فؤاد بمناقشة أمر من أمور السياسـة ، وفـي الخارج كان يستشعر الخجل من خوفه ومن خشيته من رئيس القسم، خطر له أكثر من مره أن يحذر فـؤاد، أن ينصـحه بالكف عن الكلام في مكان العمل حتـى لا يعـرض نفسـه للخطر لكن فؤاد كان يبدو وكأنه مدرك لما يفعل، وعـارف

بالأخطار التي يمكن أن يتعرض لها. كلماته بسيطة، صادقة، قريبة من القلب والعقل برغم أنها تنـذر بالأخطـار، بـدأت أفكار فؤاد تلازمه كثيرا، في الطريق، في البيت، في المقهى في الفراش، أخذ يفكر فيها ويناقشها بينه وبين نفسـه بـدأت أمور جديدة تتكشف له، بدأ يرفض أمـورا كـان يعتبرهـا طبيعية ومن لوازم الحياة، وبدأت أمور لا تخصه أو تتصـل به تستفزه وتدفعه إلى الكلام، في المواصلات ومع المعارف ومع شلة المقهى، أصبحت شلة المقهى تثير الضيق والنفـور في نفسه، ثمة إحساس جديد بأن حياته تسير بطريقة خاطئة، بأن حياة العالم تمضي بطريقة غير طبيعية، غير عادلة، وأنه من الممكن أن يكون العالم أكثر عدالة.

بعد محادثة رئيس القسم ود أن يعتذر لفؤاد، أراد أن يخبره بكل ما دار بينه وبين الفكين الكبيـرين، تـردد فـي البداية، خشي أن يصدر من فؤاد ما يفهم منه رئيس القسم أنه هو الذي أخبره، وأخيرا قال له كل شيء.

لحظتها كان فؤاد يتحدث عـن صـغار المـوظفين، واقتربت الكلمات من حياته ، جسدت ما يعانيه من مشـقات وما يأمله ويشتاقه، وبدا فؤاد بوجهه الوسيم الطيب وعينيـه

الباسمتين رقيقًا وصادقًا، أحس بأنه صـديق عزيـز ينبغـي الوفاء له فاندفع وأخبره بكل شيء.

لم يفاجأ، لم يخف أو يغضب ابتسم بسمته الرقيقة ولم يعلق بكلمة، فقط هزَ رأسه ونقر بأصابعه، لحظتهـا تـذكر موقفه في تخشيبة قسم البوليس، وقامة أبيه المحنية وكلماتـه المستجدية، والوجوه الجهمة القاسية، تذكر ما رواه أبوه عن مظاهرات عام ١٩٣٠ عن الضرب وشرب البـول وسـحق كرامة الرجال، مرارة أبيه وهزيمته وهو يحكـي اللحظـات التي عاشها والتي يبدو أنه لن ينسـاها ولـن يتحـرر مـن مرارتها حتى آخر لحظة في حياته، وتمثل له وجه الشـاب الذي قُبِض عليه في شارعهم والذي كان أبوه يحـذره مـن مصيره تذكر كل هذا دون أن يشعر بالخوف والهلع القديمين، كان وكأنه يتذكر شيئًا كريها يخشاه لكن دون أن يرتجف له، وأحس بالإشفاق على فؤاد، ولكن فؤاد بدا لسبب ما في غير حاجة إلى الشفقة أو الخوف عليه فسأله مترددا:

- ألا تخاف؟

- مم؟

- من.. من السجن .

ورفت على شفتيه بسمة صغيرة:

- زرته مرة وعلي أن أزوره مرات كثيرة.

وحدَق إليه دهشًا، ثمة واحد من النماذج التي سـمع وقرأ عنها. النماذج التي لم يصدق أبدا بوجودها، وقفزت إلى عقله أسئلة كثيرة ود أن يتفوه بها لكنه خشي أن يفضح خوفه القديم، خشي أن يبعثه بداخله بقوته التي يبدو أنها تضـاءلت لأسباب لا يعرفها، وأخيرا قاوم تردده وتساءل في استحياء:

- وهل استطعت أن تتحمل التعذيب والسجن؟

- كل إنسان يمكنه أن يتحمل التعذيب ويألف السجن إذا آمن بقضية عادلة.

- ولكن.. لم تعرض نفسك للخطر؟.. ما الذي تجنيه من وراء ذلك؟

وكبرت بسمة فؤاد وشعت في وجهه:

- وهل نعيش لمجرد الأكل والشرب والنوم والتعامل مع الأرقام الكاذبة؟

وتأمل الوجه الرقيق الباسم ولم يقتنع، لم يصـدق أن في ميسور الإنسان أن يعرض نفسه للخطر بهـذه البسـاطة ودون أن ينتظر شيئًا لنفسه، جرأته بسيطة، محببة، بلا زهو أو تفاخر، كلامه يوقظ العقل، يجعله يفكر في كل ما يحيط به في كل ما يوجد في العالم ويعطي أملاً بأنه فـي يـوم مـا ستوجد حياة طيبة، لكن إذا كان المرء يؤمن بأفكار يمكن أن يعرضه التصريح بها للخطر فلماذا لا يحـتفظ بهـا لنفسـه أو حتى يكتفي بالحديث عنها مع أقرب أصدقائه؟

- ألا تخشى على حياتك؟

أفلت منه السؤال فتأملـه فـؤاد بعينيـه الباسـمتين الودودتين:

- قد نفقد حياتنا في حادث عابر نتيجة تهور سـائق أرعن أو بأثر ميكروب من ملايين الميكروبات التي تتطـاير من حولنا. ما ينبغي أن نخشاه هو أن تصبح الحيـاة نفسـها عبئًا علينا.

ثمة يقين هادئ وصادق وعميق في الكلمات، فـي البسمة الرقيقة الواثقة، في لمعة العينين الذكيتين، وأمام هـذا

اليقين تفتح أبواب كثيرة. أبواب عالم رحب آهـل بالآمـال والوعود. ويلوح أفق ثري بالألوان، أفـق ينـادي ويغـري بالاقتراب واعدا بأشياء كثيرة رائعة. يقين يجعل المرء يحس وكأن أبعاد العالم تقترب وتقترب حتى يوشـك أن يلمسـها بيديه، يقين يقرب الناس من القلب، يجعـل الآخـرين، كـل الآخرين يبدون طيبين ومغلوبين على أمرهم وجديرين بالحب والإشفاق والمساعدة.

كان يتحدث بإسهاب عن النظام الذي يجب أن يسود العالم فقال له محمود:

- أنت تتمنى حياةً تخلو تماما مـن الظلـم والقهـر والعناء وهذا مجرد حلم، حلم جميل ولكنه مستحيل.

وأشرق وجه فؤاد، أضاء بما يشبه الفرح:

- شعوب كثيرة شرعت بتحقيق هذا الحلم، ولن يمر وقت طويل حتى يسود العالم برغم كل شيء.

وهز محمود رأسه بفوديه الأشيبين، فودي الموظـف العتيق:

- ولكن هنا لا .. نحن نعيش كما عاش أجدادنا وأجداد أجدادنا.

- لا يوجد شعب يقل عن غيره من الشعوب، وثمة شعوب كانت أكثر تخلفًا منا تحررت وانطلقت في الطريق، وسيلحق بها شعبنا مهما طال الزمن.

وتجرأ هو وقال:

- لكن أعتقد أن من يعملون من أجل هذا الهدف قليلون بل نادرون.

- دوما وجد الكثيرون منهم لكن تاريخنا الحقيقي لم يكتب بعد.

وهو يتحدث عن النظام الذي يعتقد أنه سيسود العالم يبدو وكأنه يصف شيئًا يراه بعينيه، شيئًا يتراءى له عن قرب كيف تولد لديه هذا اليقين؟. كيف توصل إلى معلوماته ومعارفه الكثيرة؟.، كيف واتته هذه الجسارة؟ أية ظروف مرَّ بها؟.. ألم يعان في طفولته وصباه؟... ألم يقبض عليه وهو صبي صغير في أحد أقسام الشرطة؟.. هل أستطيع أنا أن أكون شجاعا وبسيطًا مثله؟.. هل أستطيع أن أتحرر من

الخوف القديم الذي لازمني وتحكم في كل هذه السنين؟.. هل يمكن أن يتحقق ما يحلم به؟.. هل يمكن أن يوجد مجتمع بلا قهر أو مظالم أو أحقاد؟.. مجتمع لا يكون السيد فيه هو اليوم الأول من الشهر؟.. مجرد حلم، نعم حلم، ولكنه حلم جميـل، حلم يستأهل أن يعيش به المرء، وأن يعمل بكل ما أوتي من قوة من أجل تحقيق ولو جزء منه. هل أستطيع أنا أن أعمـل من أجل ذلك الحلم؟.. كيف يكون ذلك العمل؟.. فؤاد يـتكلم عن الواقع وما ينبغي أن يكون، عن ضرورة العمل، ولكـن أي عمل هذا؟.. كيف يمكن لإنسان أن يعاني ويعرض نفسه للخطر من أجل تحقيق شيء قد لا ينعم به؟.. لماذا العناء في سبيل الآخرين؟.. الآخرين الـذين لا تربطـه بهـم صـلة أو قرابة؟.. هو نفسه حلم في صباه أحلاما شبيهة بذلك الحلم، وهو يعاني، وهو يضرَب بقسوة، وهو يحـرَم مـن أبسـط الأشياء تمنى عالما طيبا بلا قسوة وبدون حرمان أو امتهـان أو كذب لكن حلمه ظل بعيدا عنه، وأخذ يتباعد حتى تلاشـى تماما، أصبح مجرد ذكرى من أيـام الصـبا، أيـام العنـاء والقراءة والشوق، ها هو الحلم يعود من جديـد، هـا هـو يتراءى له وقد أصبح أكثر تجسيدا وأشـد ارتباطـًا بحياتـه

وحياة الناس فماذا يمكن أن يعمل له؟.. في الأسابيع الأخيرة عاوده الحنين إلى القراءة التي هجرها سنين عديدة، عاد إلى القراءة لعله يعرف أكثر، لعلـه يسـتعيد المشـاعر الدفيئـة وانطلاق الفكر والخيال، بوده أن يسأل فؤاد عما يفعله مـن أجل تحقيق ما يؤمن به، لا شك أنه لا يكتفي بمجرد الكـلام مع زملاء العمل ومعارفه أو بالقراءة، همَّ أكثر من مرة بأن يسأله، أحيانًا كان يخشى الظهور بمظهر المتطفل على أسرار فؤاد الخاصة، وفي أحيان أخرى خشي أن يكشف له فؤاد كل شيء ويدعوه إلى العمل معه فيجد نفسه أمام عمل لا يقـوى على القيام به، عمل أكبر من إمكانياته وظروفه، تغيب فؤاد في إجازه منذ ثلاثة أيام، سيتغيب أسبوعين كاملين، الجميـع يفتقدونه، كلهم يحسون بأن شيئًا هاما ينقصهم، شيئًا أصـبح جزءا من يومهم لا يمكن الاستغناء عنه حتى ولـو اختلفـوا معه أو تهيبوه، منذ أن جاء فؤاد أصبحوا أكثر تقاربـا وودا، لا شك أنهم جميعا أحبوا ذلك الحالم الرقيق الجسور، لا شك أنهم جميعا تعلقوا بحلمه ويشتاقون تحقيقه، من منهم يمكن أن يقوم بالعمل الذي يقوم به فؤاد؟.. من منهم يقوى على تحمل تكاليف ذلك الحلم الباهظة؟ كلهم أصـبحوا يتناقشـون بـلا

خوف، كلهم أصبحوا يستخفون برئيس القسم ويعاملون حسن في جفاء، ثمة تمرد خفي يدوم تحت السطح، محمـود بـدأ يضيق بتزييف الأرقام، في هذه الأيام يخـرج مـن حجـرة رئيس القسم متبرما ومستفزا، مازال يطيع رئيس القسم لكنها أبدا ليست الطاعة القديمة، أصبحت طاعته كارهة ومتوترة ، لم يتخلَ تماما عن حذره، يقول أحيانا إنـه شـاخ وأصـبح صاحب أولاد، أحيانا يعارض فؤاد لمجرد المعارضة وفـؤاد يبتسم في ود وإشفاق، فوزي أقرب أفراد الشلة إلـى فـؤاد، يبدو أنهما يلتقيان خارج العمل، هل يقوى فـوزي علـى أن يقوم بما يقوم به فؤاد؟.. لا يبدو أنه جبان، بل يبدو في أحيان كثيرة متهورا، ولكنه عصبي ومتسرع، كثيرا ما يبدو ساذجا سذاجة صبيانية، سذاجة فيها نقاء وطيبة، لا شك أن تحقيـق ذلك الحلم يحتاج إلى عمل آلاف الناس، الناس الذين يـراهم كل يوم ويبعثون في نفسه الضيق والنفور؟.. النـاس الـذين يسرعون في الطرقات مطـاردين ولاهثـين أو متسـكعين بلا غاية؟!.. الناس الذين يتسابقون في شراسـة ويطعنـون ويسحقون بعضهم البعض لأتفه الغايات؟!.. هل هؤلاء الناس هم الموكلون بتحقيق ذلك الحلم؟.. لكن كيف أصـبح النـاس

بهذه الحال؟.. هل كانوا هكذا دائما ومنذ أن وجد الإنسـان؟. من يقتل الأحلام ويجهض المشاعر النبيلة ويولد الـذعر؟.. برغم قسوة زوجة أبيه، برغم قسوة بعض مدرسيه لم يكـن يظن في طفولته وصباه أن العالم بهذه القسوة، بهـذا القـبح والضراوة، كان يخيل إليه أنه في مكان مـا توجـد الطيبـة والرقة والحنو، يوما سعى وراء ذلك الأمل الغـامض الـذي يوجد في مكان ما من العالم، ضربته زوجـة أبيـه بقسـوة فخرج إلى الطريق باكيا أحس بالضيق من كل شـيء، مـن زوجة أبيه، من أبيه نفسه، من البيت ومن المدرسة، وخطـر له أن يفر إلى أي مكان آخر، فكر في أن يذهب إلـى بيـت عمه، لكن ما أن تمثل له وجه عمه الممتلئ الجهـم وأولاده المتعجرفين الشرسين حتى طرد هذا الخاطر، وترك شـارع بيتهم، قاوم تردده وتهيبه وخاف شارعهم ومضى فـي عـدة طرق، وفجأة وجد نفسه في شارع كبير، شارع لم يره مـن قبل، ويزدحم بالصخب والعربات المارقة والناس، وترتفـع على جانبيه أبنية كبيرة وعالية هائلة أحـس بأنـه صـغير وضئيل في الضجيج والزحام وأمام البيوت الغريبة، أحـسَ بأنه غريب في عالم لا يعرفه فتملكه الخوف وراح يفتش عن

شارع بيتهم وقد تبدد عزمه على الفرار، ما كان يظـن أنـه ستمر سنون وسنون وهو يعاني ويشقى بلا أمل وبلا عزاء، ما كان يظن أنه سيلاقي يوما شوقه الطيب، هل كُتِب علـى البشر العناء والتعاسة؟.. كان أبوه يقول إن الدنيا دار شـقاء وإنه لا توجد راحة إلا في الآخرة، كان ينظر إلى متع الحياة بزهد وتعفـف.. المهـم هـو السـتر.. لا يأخـذ الإنسـان إلا نصيبه.. هل كان ذلك الزهد استسلاما؟.. أكـان سـاترا للعجز واليأس؟... أكان خوفًا دفينًا من الحيـاة أخفـاه أبـوه وقنعه؟.. كان لا يثق بالأيام، كان يتـوجس مـن الغـد، إذا ضحك قليلاً فسرعان ما يخنـق ضـحكته ويلـوذ بصـمت متوجس.

- اللهم اجعله خيرا

لم يكن يستحق الكارثة التي حلت بـه فـي آواخـر أيامه، لماذا لم ينعم بالهدوء وراحة البال، بالستر، ولم يكن قد بقي على إحالته إلى المعاش أكثر من عـامين؟.. اسـترعى انتباهه يوما أن أباه تغير كثيرا، زاد نحولاً وشحوبا، وأصبح يطيل الصمت والشرود، ويثور لأتفه الأسـباب، أصـبحت شفتاه تتحركان بكلام غير مسموع، وكثيرا ما يغادر البيـت

في المساء على خلاف عادته، ويعود فـي سـاعة متـأخرة مهموما ومهدودا وصامتًا، يأوي إلى الفراش دون أن يتناول عشاءه أو يتبادل كلمة مع أحد، واحتشدت عيناه المهمومتـان بمزيد من الهم، وذات صباح وجد أباه وحيدا يكفكف دموعه، دهِش وازدحم صدره بالكره لزوجة أبيه فلم يكن قد رأى أباه باكيا من قبل. وجلس إلى جواره، أمسك بيده المعروقة وسأله مترددا عما به فلانت غضون وجهه وحاول أن يبتسم، نظر أبوه إليه طويلاً وكأنه يكتشف وجوده للمرة الأولى، وامتدت يده لتداعب شعر رأسه، المداعبة المحببة القديمة.

ألح على أبيه أن يخبره بما يحزنه فأخبره الرجل بأنه أُتهم بالرشوة وأن النيابة العامة تحقق معه.

رفض أن يصدق. رفض أن يصدق أن أباه الطيـب الوادع المحاذر يمكن أن يرتشي، وسالت الدموع على الوجه الأسمر المغضن، قال أبوه إن كل زملائه كـانوا يرتشـون، وإنه كان يرفض دوما أن يشترك معهم، كان يتباعـد عـنهم ويغمض عينيه، وكانوا يكرهونه ويسخرون بـه، وضـغط الرجل على كتفه وأجهش بالبكاء.

- صدقني يا ابني.. أنا مظلوم، لم تمتد يدي أبدا إلى قرش واحد حرام.

وصدق أباه، هوّن عليه ومناه بظهور الحـق وهـو يدرك أن الحق يمكن ألا يظهر أبدا.

وذات مساء يذهبان معا لزيارة عمـه، وفـي أثنـاء الحديث يلمح عمه بما يتناهى إلى سمعه عـن اتهـام أبيـه بالرشوة، واندفع أبوه مرتعشًا ولاهثًا يحكي واقعـة الاتهـام الظالم وينفيه عن نفسه، وانسدح عمه بظهره إلـى الـوراء، انسدح في المقعد الفاخر المريح، ومد كرشـه الكبيـر إلـى الأمام، وأشاح بوجهه الكروي المنتفخ، بشـفتيه الغليظتـين الملتويتين:

- من يدري؟.. من يدري الحقيقة؟

وحدق أبوه في وجه عمه وارتعـد، ارتجفـت يـداه وتكاثفت قطرات العرق الكبيرة على جبينه المجعد، وفجـأة انتفض واقفًا، واندفع إلى الخارج دون أن يفوه بكلمة.

وفي الطريق لاذ بالصمت، بدا وجهه مربدا، وظهره محدبا، وخطاه مثقلة، وكأنه شاخ أعواما في دقائق معدودة.

وبعدها بأيام وجدوه ميتًا في الصباح.

مات الرجل الطيب، مات دون أن يشـهد براءتـه، لا شك أنه كان ضحية اتهام ظالم، لا شك أنه كان ضـحية إنسان خبيث وقاسٍ، انتهت حياته نهاية لم تخطر أبدا ببالـه، هل يمكن أن يوجد مجتمع لا يظلم فيه الطيبون والبسـطاء؟. سحابة داكنة تخفي وجه القمر. القمر يفلت منها.. تخفيه مـن جديد، تضبب وجهه... ثمة نجم يخفق في ظلمـة السـماء، يومض مرتجفًا، يختفي، يغوص في الظلمـة.. يظهـر مـن جديد.. يومض ومضات راعشة ويلتمع، نباح الكلاب، النباح بعيد، ووحيد، ويائس، أين ذهبت الصبية الصـغيرة؟.. هـل عادت إلى بيتها؟.. القمر يفلت من السحاب، طبـق فضـي مضيء يسبح في السـماء المعتمـة، ثمـة نجـوم، نجـوم كثيرة،كون كبير، هائل، لا يحد، الإنسان كائن صغير ، ذرة تعيش على الأرض، والأرض ذرة في الكون الهائل، كوكب صغير من تسعة كواكب تدور حول الشمس، والشمس أكبـر من الأرض مليون مرة، وهناك ملايين النجـوم أكبـر مـن الشمس بملايين المرات.. لماذا وجِد الإنسان في هذا العالم؟.. هل وجِد ليشقى؟.. هل ألقي بنا فـي العـالم بـدون عـون

أو أمل؟.. كيف وجِد القهر في حياة الناس؟.. كيف وجِـدت القسوة التي تمتهن الإنسان وتجهض أفراحـه الصـغيرة؟.. لماذا لا تكون حياة الإنسان رحلة سعيدة وممتعة؟.. هل يظل الأمان والراحة والاكتفاء والفرح حلما بعيدا؟.. وهو صـغير كان يستلقي في الفراش ويحلق به الخيال، يتمثل أباه يـدخل البيت مبتسما وسعيدا، يملأ حضنه بأشياء كثيرة، لعب وفاكهة وحلوى وأشياء أخرى تحمل له السعادة، ويقترب منه محبـا وحانيا، يقبله جبرا، يداعبه أمام عيني زوجته بدلاً من تلـك المداعبة الخفية الصامتة، كثيرا ما حلم بأن أمه التي لا يملك غير بسمتها الغائمة تداعبه وتأخذه في حضنها الدافئ وتحكي له الحكايات، حكايات سعيدة، مضحكة، لا حكايات العفاريت واللصوص، وأنهم هو وأمـه وأبـوه يجلسـون معـا فـي الأمسيات، في أمسيات الشتاء، متقـاربين، يـأكلون طعامـا سخيا، ويضحكون وبلا هم وبلا خوف، ودوما كان يسـتيقظ على صرخات وصياح زوجة أبيه، حـين كبـر وأدرك أن أشياء كثيرة تبقى دوما عصية ومستحيلة حلم ببيـت مـريح وزوجة طيبة ودخل معقول يحقق الاكتفـاء، وأولاد يحنـو عليهم ويداعبهم، أولاد سعداء لا يخافون مـن زوجـة الأب

ولا يرهبون المدرسين، أولاد لا يجلس أحدهم باكيا على أرصفة الطرقات، وتبدد الحلم الأخير.. كم من الساعات الطيبة عاشها؟...

كم ضحكة فرح حقيقية ضحكها في حياته؟. وماذا تحمل له الأيام القادمة؟... ثمة توجس وخوف من الأيام التي لم تأتِ بعد، عندما يأمل في شيء بسيط يأمل فيه بحذر وخوف، يتوقع دائما أن يحدث ما يبدد آماله الصغيرة، ثمة حزن غامض يفيض من نفسه في بعض الليالي، حزن ممض، وغريب، يجعل كل الأشياء في عينيه أسيانة وبلا معنى، حزن يوقن معه بأن الأيام القادمة لا تحمل شيئًا طيبا، لا تحمل إلا مزيدا من المتاعب والأخطار، لحظاتها يتمنى لو يموت، لو يتخلص من الحياة، لو يستريح منها، أحيانًا يكتشف فجأة أنه عاش أياما وهو فارغ تماما من الداخل، لا شوق، لا أمل، لا بهجة حقيقية ولا حتى حزنًا عاصفًا يحرك أعماقه.

- أحمد .

- نعم .

- ألا تنوي أن تنام؟

- لا .

- ألن تذهب إلى العمل غدا؟

- لن أذهب .

لن أذهب إلى العمل غدا، لتكن مرة بإرادتي دون أن يفرضها عليّ ظرف طارئ، سأعفي نفسي من رؤية الوجـه الجامد والفكين الكبيرين، من التعامل مع الأرقـام الكاذبـة.. لكن كيف أنفق ساعات النهار؟... هل أمضيها في البيت فـي صحبتك الطيبة يامن تشخرين في بلاهة؟

- أتحبني؟

وينظر إليها، يود أن يصفعها بأشياء كثيرة لكنه يبتلع كل شيء ويشيح بعينيه بعيدا عنها، دائما يبتلع كل شيء:

- نعم أحبك .

رقم آخر مزيف، ميزانية صغيرة كاذبة.

وتبتسم ابتسامة مصنوعة، زائفة، وتقول بدلال لـزج متكلف:

- أنت لا تحبني .

ويختنق صدره بالضيق فيتخلص منها:

- ابدا.. أحبك .

- هل تحبني بقدر حبك في أيام الخطوبة؟

وهل أحببتك في أيام الخطوبة؟.. هل أحببتك يوما؟.. هل كان يمكن أن أحبك؟.. في أيام الخطوبـة كـان الكـذب مقبولاً، كان كذبا معلقًا على وعد، على أمـل، كـان كـذبا صغيرا، مبالغة وتكبيرا لما يختلج في القلب، لحنين الشـوق إلى الأيام الطيبة، لبداية اللهفة إلى الجديد، كان كذبا مشروعا قبل أن أعرف الحقيقة، وحين عرفت الحقيقة أصبحت أرقاما أخرى زائفة أسجلها بآلية مضطرا وبرغم إرادتي.

كان قد جاوز الثلاثين، وقالت قريبة أمـه إن الفتـاة التي ترشحها له جميلة ومن عائلة طيبة، وحين رآها أعجب بالشعر الطويل والرموش الوطفاء والصدر الناهـد، كانـت قسماتها تميل إلى الكبر ويعوزها التناسق، وبوجهها آثار حب شباب قديم لكن هالة الشعر المنسدلة على كتفيهـا وظـلال وتهويمات الرموش الطويلة في عينيهـا السـوداوين كانـت

تضفي عليها جاذبية هادئة وأليفـة، جاذبيـة تعـد بالـدفء والحنان، ولم ينتظر طويلاً، ثلاثة شـهور وجـاءت الليلـة الأولى، كان فرحا متهيبا، كان يمني نفسه بسعادات لا حـد لها، ودس وجهه في خصل الشعر الفاحم، مرغ وجهه فـي نعومة الشعر ورائحته الأنثوية التي تذكره برائحـة حبيبـة لا يعرف متى وأين كان يستعذب شمها، وعندما هما بـالنوم مرت يدها إلى رأسها وخلعت الشـعر الفـاحم، والرمـوش الوطفاء.

حدق إليها ذاهلاً، حدق إلى الشعر القصير الأكـرت والوجه ذي الملامح الكبيرة وآثار حب الشباب القديم والعينين المقرحتي الأجفان وقد فقدت ظلالها الحالمة.

- هل ؟

ولم يكمل السؤال، اختنقت بقية الكلمات في حلقه.

وتساءلت ببسمة متباهية:

- أليست باروكة جميلة؟

وابتلع حزنه المفاجئ وأشاح بعينيه

- مالك؟.. ما رأيك في الباروكة؟

- كنت. كنت أظنها شعرا حقيقًا.

وضحكت ضحكة صغيرة خشنة:

- معظم النساء يضعن شعرا مستعارا.

وانطفأ تماما.

وغيرت ملابسها فكشفت عن جسد بدين يميـل إلـى السمنة والترهل، ونهدي صبيه في الثالثة عشرة، ضـامرين منزوفين لا يعدان بشيء.

وفي الليل استيقظ، وامتدت يده عفوا فلامست الشعر المستعار المكوم على مقربة منه، شعر المرأة الأخرى التـي لا يعرفها والتي لن يلتقي بها أبدا، وتحسسه وفاضت نفسـه بمرارة الخيبة.

فكر كثيرا، هل يطلقها؟. ماذا يقول للناس؟.. كيـف يبرر الطلاق بعد الزواج بأيام؟.. أيقول إنه خدع؟.. أيقول إنه اكتشف أن الشعر الأسود الطويل الذي جذبه إليها شعر امرأة أخرى؟.. أيقول إن كل شيء بداخله قد اختنق ومات لحظـة أن سقط الشعر الفاحم الذي داعبه كثيرا أيام الخطوبة؟..

عليه أن يتقبل قدره، أن يبتلع خيبته، الزواج قسمة ونصيب، وعليه أن يرضى بما قُسِم له.

طلب منها أن تتخلى عن الشعر المستعار، قال لها إنها تبدو أجمل وأرق وهي طبيعية ولكنها أصرت على استعمال الباروكة في البيت وفي الخارج، وكشفت عما بداخلها، عن العصبية الحمقاء والكسل الغبي، معظم وقتها أمام المرآة تصنع نفسها.. المظهر.. المظهر.. المظهر هو كل شيء، ليس مهما أن يكون الداخل أنيقًا أو نظيفًا فلا أحد يراه، لا أحد يرى ما وراء الأبواب المغلقة، الجميع يحكمون بما يبدو من الخارج، الجميع يظهرون بغير حقيقتهم.. هذه الأشياء الصغيرة التي توزع في البيت هي التي تعطيه الرونق، وتوحي بالرفاهية.. تخلّ عن الألوان الرمادية التي تفضلها.. لابد أن ترتدي ملابس زاهية الألوان. لابد أن تبالغ في العناية بمظهرك.. صفف شعرك جيدا. استعمل له دهانًا يجعله يلتمع ويبرق، ثمة شعرة نافرة من شاربك. لابد أن تشبك ذراعك بذراعي ونحن في الطريق حتى يعرف الناس أننا سعيدان.. لا تتبسط في الحديث، تعود أن تضع ساقًا على أخرى وأنت بين الناس.. افرد قامتك واختر ألفاظك.. أوهم

الآخرين بأنك تعيش في ثراء فيصدقوك. لابد أن نتزاور مع الأقارب والمعارف... ينبغي أن نقدم الهدايا في المناسبات.. المظهر.. المظهر..

قدره، نصيبه، الرجل الطيب الذي مات مقهورا كان يقول إن كل شيء مكتوب، الشعر المستعار والرموش الكاذبة قسمته ونصيبه.

- أحمد .

- نعم .

وتنظر فيما يشبه الحياء:

- أنا حامل .

ماذا؟.. حامل؟.. سيكون لي ابن؟!.. ستنجبين لي ابنًا أو ابنة؟ ابنًا فأنا أفضل الأولاد كما كـان يفضـلهم أبـي.. سيكون لي ولد من صلبي؟.. من كياني.. ولد صغير أداعبه وأضحك معه ويملأ البيت صخبا وبهجة؟.. أبدا لن أحضر له زوجة أب، لن أجعله يجلس باكيا في المساء علـى أرصـفة الطرقات، مغفور لك شعرك الكـاذب ورموشـك المزيفـة، مغفور لك كل شيء من أجل ولدي الحبيب القادم.

ويضع يده على البطن العاري، يتحسـس اختلاجـة الجنين الذي يتخلق من أجل فرحتـه، وتـرقص فـي قلبـه الفرحة، تفرخ أفراحا يحفظها للوافد العزيز، ويضـمها إلـى صدره، يقول لها كلاما كثيرا حلوا، كلاما صادقًا، لا يقـول لها إنه يحبها أو إنه سيحبها حتى نهاية العمر ولكنـه يقـول كلاما حانيا ودودا ينبع من قلبه الفَرِح، من قلبـه المتشـوق المنتظر ويجيء فهمي، سماه باسم أبيه.

- إنه يشبهك تماما .

- أجل فهو ولدي، من صلبي.

بابا.. بابا.. أنا فداؤك يا ولـدي، انطلـق بالكلمـات الحلوة، بأعذب الكلمات طال اشتياقي للفرح، أطلب كل مـا تشاء، كل ما تريده سيكون لك حتى لو كان في أقصى العالم، سأتحمل كل شيء من أجلك، سأتحمل العصـبية الجارحـة، سأتحمل الكسل الرخو البليد، سأبتلع دوما ضيقي وخيبتي وأنا أرى شعر المرأة الأخرى يزيف رأس أمك، فقط لو أجردها، من ذلك الشعر أمام عيون الناس ولو لمرة واحدة، لو أجردها من شعرها ورموشها بل ومن ملابسها ليعرف الناس كيـف تصنع الدمى، ليعرفوا كيف تزين الواجهات الكاذبة، ليدركوا

مدى الخيبة ومذاق المرارة التي أبتلعها حين تمتد يدي عفـوا فألمس الشعر الكاذب.

في عيد زواجهما الذي أصرت على الاحتفال به منذ شهور تملكته رغبة في أن يتقدم إليها في هدوء ويمـد يـده وينزع شعرها ورموشها ويجردها من ملابسـها أمـام كـل العيون، العيون التي تحملق فيها بإعجاب، بحسد، باشـتهاء، لكن أبدا لم يفعل ما يريد.. فعلها مرة.. في ليلة شتاء، كـان عائدا إلى البيت وقد أحس بحاجة إلى الدفء، إلـى حـرارة العناق، تمنى أن يضمها إلى صـدره، أن يـذوب فيهـا، أن ينصهر معها كما لم ينصهر من قبل، ولحظة أن دخل مسكنه كانت تسوي الباروكة فوق رأسها، ارتجفت رغبته، أوشـكت على الاختناق فمد يده وخلع الشعر المستعار وألقى به بعيدا، حدقت إليه في دهشة، في شراسة حـاول أن يضـمها إليـه فدفعته عنها وانفلتت منها ألفاظ جارحة، واختنقـت رغبتـه وماتت.

في الليل يتأملها وهي نائمة تطلق شـخيرا كخـوار الثور الأبله فيحس كم خدع ويبتعد عنها، يضـم ولـده إلـى صدره، يتعزى به.

مات فهمي، ماتت فرحته الوحيـدة، نـزف الجسـد الصغير الغض حياته شيئًا فشيئًا أمام عينيه؛ ومضى عنـه، أخذ كل أفراحه وآماله وترك له قبرا صغيرا يزوره في أيام متباعدة ويعانق أمامه شجوه وأحزانه، مضى وترك له شعر المرأة الأخرى والثرثرات الفارغة والأيام المكرورة التي بلا طعم.

عامان مرا، سطح المستنقع راكد لا يرتعش باختلاجة حقيقية.

حاول أن يجعل من حياته معها أمرا محتملاً، أحيانًا يختنق بها، بزيفها، بعصبيتها بتفاهتها، بغبائها ويود أن ينهي كل شيء، أن يطردها من حياته، وأحيانًا أخرى يقول إنهـا قدره وقد تكون أفضل من سواها، ويحاول أن يخلـق لهمـا مجرى مشتركًا، أن يعطيها اهتماما وودا، أن يقنعها بالتخلي عن بعض عيوبها، وأن يروض نفسه على احتمال الـبعض الآخر، أن يشركها في أفكاره ومشاعره لكنها تتنـاءى عنـه دوما، وكأنها تحرص على أن تبقى بعيدة عنه، بعيدة كواجهة لامعة ومزيفة يقف أمامها كارها وعاجزا، كثيرا ما يتوق إلى امرأة حقيقية، إلى كائن حقيقي يضمه إلى صدره، يهمس لـه

ويشرب من همسه يذوب فيه ويفرح معه، ويشتاق ويتـوهج في أحضانه ،كلما رأى امرأة جميلة ورقيقة تمنى أن تكـون له، أن تكون في بيته، كلما رأى شعرا سبطًا وناعما حدق في منابته وتساءل عما إذا كان شعرا حقيقيا، لماذا كانـت هـذه الزوجة من نصيبه دون النساء جميعا؟.. ترى لو ماتت هـل يحزن عليها حزنًا حقيقيا؟.. هل مـا يحسـه تجاههـا هـو المقت؟.. مجرد شعور بأنها كائن غريب فُـرض عليـه أن يعيش معه.. هل يشعر الأزواج الآخرون بنفس الأحاسيس؟.. معظم الرجال الذين يعرفهم يخونون زوجاتهم ولـو بمجـرد النظر والتشهي، يقولون إن الحب يموت بعد الزواج بشهور أو بأعوام قليلة.. لو أنه تزوج هناء هل كان يمكن أن يعيش طوال العمر؟.. كيف كان يمكن أن تمضي حياتهما؟.. لو أنه تزوجها ما كان يمكن أن يضيق بها يوما، حين رأى الموظفة الجديدة وخُيل إليها أنها هناء خفق قلبـه بسـرعة، بجنـون، واندفعت الدماء الحارة إلى رأسه، أمازال يحبها؟. كان يناديها يا أمي وكانت تقول له إنها ستكون الأم والحبيبة والصـديقة والزوجة.. في آخر لقاء بكت، بكت بحرقة، وحين افترقا لـم تمد يدها لتسلم عليـه، وابتعـدت بثوبهـا الأزرق البسـيط،

أضاعها بيده، بتردده، هل يمكن أن يعيش مرة أخـرى حبـا مثل ذلك الحب؟.. أيمكن أن يعيش مرة أخرى نفس المشاعر والأشواق القديمة؟.. فـي هـذه السـن؟!.. فـي الخامسـة والثلاثين؟.. بعد أن شاخت مشاعره، امرأة عجوز متشـحة بالسواد ومحدبة وحافية القدمين تخرج من بيت قديم، الشاب المعتوه يشير إلى القمر، يدعوه والقمر بعيد.. بعيد.. الـنجم الصغير يرتجف، يومض في العتمة، العجوز يأخذ كرسـيه ويدخل إلى بيته، ضئيل ومحنـي الظهـر، يـدخل لينـام، بماذا يفكر ذلك العجوز؟.. هل يحس بالرضى عـن الأيـام التي عاشها أم أنه يكتشف بعد فوات الأوان أنه عاش حياة لم تكن تستحق عناء العيش؟.. كيف ينظر إلـى العـالم الآن؟.. نظرة الصديق الذي يودع صديقًا طيبا نعم بصحبته أم نظرة الكاره لعالم لم يعطه شيئًا؟.. لعله يتعزى بالأمل فـي حيـاة أخرى.. لعله يتعزى بأبناء طيبين أنجبهم ورباهم، أو بأعمال طيبة أداها في حياته.. ماذا سأفعل أنا في شيخوختي؟.. هـل سأجد شجرة أتفيأ ظلها راضيا ومغتبطًا؟.. هل هناك أعمـال حقيقية قمت بها؟.. كثيرا ما تمنيت كثيرا ما حلمت، حلمـت كثيرا في صباي، حلمت حلم أبي، أن أكون طبيبـا، غيـاب

خمس درجات حرمني وحرم الرجل الطيب من تحقيق ذلـك الحلم حلمت وأنا صغير بأن أكون مدرسا طيبا كعبد الحميـد أفندي، مدرسا يعامل الأولاد برقـة واهتمـام، لا يسـبهم لا يضربهم، ولا يهددهم بالحبس في حجرة الفئران، وحلمت بأن أكون ضابط بوليس كبيرا، أمشي مختالاً ومزهوا بنجـومي اللامعة والجنود يقفون وقفة الانتباه ويعظمون لـي والنـاس يعاملوني باحترام وخشية، وحين أحببت القراءة حلمت بـأن أكون كاتبا كبيرا أو عالما يخترع اختراعات خطيـرة تغيـر وجه العالم، كل أحلامي كانت قصيرة العمر، كلهـا تبـددت سريعا عندما تخرجت والتحقت بالوظيفة نويت أن أجتهد في عملي حتى أصبح مديرا أو رئيس مجلـس إدارة أو موظفًـا كبيرا، أصبحت رقما ضمن ملايين الأرقام، رقما يتعامل مع أرقام زائفة، رقما يمكن الاستغناء عنه دون أن يترك فراغًـا أو يفتقده أحد، هل أنا مسئول عن ضياع أحلامي؟.. ألم أبذل جهدا صادقا يحقق واحدا منها؟.. هل كانت إرادتي حرة فـي اختيار طريق حياتي؟.. خمس درجات، نقـص مجمـوعي خمس درجات حرمني من تحقيق حلم أبي وحلمي!.. نهايـة ما توقعتها أبدا، مجرد رقم!!.. لكنني عشت شريفًا، لم أختلس

ولم أرتش، ألا يعتبر هذا في حد ذاته أمرا طيبا؟.. ألا يبعث على الرضى؟.. على الفخر؟.. لكن كان يمكن أن أنزلق، أن ألوث يدي، لماذا رفضت تقاضي الرشوة؟.. أكان ذلك بدافع الشرف أم بدافع الخوف؟.. حين قدم الرجل عرضه أجفلـت كالملسوع وسارعت بالرفض، لحظتها لم أفكر فيم يمكـن أن أخشاه، لم أفكر في افتضاح الأمر والتعرض للخطـر. لكـن ماذا لو كان العرض قدم لي وأنا في ذروة أزمتي الماليـة؟.. ماذا لو كان المـال فاجـأني وجهـا لوجـه دون وسـاطة أو تمهيد؟.. أيامها مرت علي لحظات كنت أنوي فيهـا أن أتقاضي الرشوة لو أتيحت لي الفرصة، لكنني رفضت طوال ثلاثة عشر عاما، لكن.. لكنني ارتكبـت جريمـة التزويـر وأرتكبها كل يوم، ألا يعد هذا عمـلاً شـائنًا؟.. ألا يعتبـر جريمة يمكن أن أعاقب عليها؟.. لكن هـل كـان يمكـن أن أستمر في الرفض حتى النهايـة؟.. أكـان باسـتطاعتي أن أتحدى رئيسي، أن أتحدى الشركة والمؤسسة؟.. لو لم أفعلها لفعلها غيري، الكثيرون يفعلون أكثر مما أفعل.. أيبرر هـذا فعلتي؟.. فؤاد لا يعرض عليه أحد أن يشارك فـي عمليـة التلاعب الرجل يحاذر منه، يخشاه، فؤاد اكتشف كل شـيء

بنفسه، يقول إن الأثواب المهلهلة لا يجـدي معهـا الترقيـع والرتق، ماذا يمكن أن أفعل الآن؟.. هل أرفـض التلاعـب وأثور على الفكين اللامعين وليكن ما يكون؟... مـا الـذي أخشاه؟.. ماذا يمكن أن أخسر؟ .. هل يوجد أسوأ من هـذه الحال؟.. هم وعناء متصلان، ترقب دائم ولاهث لليوم الأول من الشهر، اليوم الكاذب دوما، يعد ويعد وسرعان ما يكذب، دائما أصدقه وأعدو وراءه، أتعجل مرور الأيام وصولاً إليه، أتعجل مرور أيام عمري كأنني كاره لها، هكذا بدلاً مـن أن أعيش أيامي أتعجل مرورها؟.. أأصـبحت معاديـا لحيـاتي نفسها؟!.. من أجل أية غاية؟.. من أجل ما يسد الرمق؟.. من أجل مطالب تافهة لا يتحقق معظمهـا أبـدا؟.. كثيـرا مـا يستغرقني في التفكير لساعات وفجأة أكتشف أنني أفكر فيمـا صرفته وما كان يمكن توفيره وما ينبغي أن أفعله حتى أصل سالما إلى أول الشهر، إقول لنفسي إن التفكير لا يجـدي وإن الدخل هو هو ولن يتغير والمطالب هي نفسها بـل وتتزايـد يوما بعد يوم وإن علي أن أتخلى عن القلق ولكنني وبلا وعي أعود إلى التفكير من جديد حتى أحس بـالهمود والاختنـاق بداخلي، دائما أحاذر في الصرف، أتدبر الأمر كثيرا قبل أن

أصرف قروشًا قليلة، أناكف زوجتـي وأعـارض مطالبهـا وأمنيها بأول الشهر، ودائما تتكرر اللعبة أحيانًا أثـور علـى نفسي، ثورات صغيرة، أقول لنفسي إنني لن أجد الأمان أبدا وعليَ أن أتحرر من الحرص الزائد، أن استمتع ولو قلـيلاً، أن أحقق الأمنيات الصغيرة وليكن ما يكون، وأفعلها مـرة، أشتري شيئًا طال تلهفي عليه، أو أحقق حلـم أكلـة سـخية أو نزهة متواضعة فكرت فيها كثيرا وسرعان ما أندم علـى ما فعلت، سرعان ما ألوم نفسي ويعاودني الخوف من أيـام الشهر الطويلة فتتبدد المتعة الموقوتة التي حصـلت عليهـا، تستحيل إلى حسرة وندم..، أية حياة هذه؟.. أمن أجـل هـذا الزيف ألاقام وأتحمل وقاحة رئيسي؟.. لماذا لا أعيش بلا قلق وبلا هم أو خوف.. لماذا لا يتوفر لي المال الذي أحقق بـه كل ما أرغب فيه في يسر وسهولة؟.. لماذا لا أستمتع بكل ما يحلو لي؟ لماذا لا أكون ثريا؟.. ثريا.. هاهاهـا.. هـذا مـا ينقصني حقًا... لكن هل الثراء هو الذي يحقـق السـعادة؟.. فلأعز نفسي، لأفلسفْ فقري.. لكن لابد من الاكتفاء، الاكتفاء المعقول هو ما أحتاج إليه، أحيانًا أتمنى العثور على ثـروة كبيرة، وأنطلق في تخيل ما يمكن أن أفعلـه بهـا، شـهادة

الاستثمار، شهادة الاستثمار اليتيمة التي أحرص عليها، علـة التمني، أطالع أرقام السحب بأمل، بقلب خافق ودائما أمنـي نفسي بالسحب الثاني، أحيانًا عندما تتضاءل النقـود أو تلـح عليّ حاجة أعجز عن تحقيقها أجدني أحدق في الطريق وأنا سائر لعلي أعثر على شيء، على مبلغ من المال وأتسـاءل عما يمكن أن أفعله لو عثرت على مبلغ كبيـر ثـم عرفـت صاحبه؟.. وكثيرا ما أجدني ميالاً إلى الاحتفاظ به لنفسـي، ذلك الموقف، ذلك الموقف الذي عشته فـي الأتـوبيس فـي الشهر الماضي، فـي آواخـر الشـهر الماضـي، الأوراق الخضراء من فئة الخمسة جنيهات المطوية في جيب قمـيص الراكب الذي يقف إلى جواري وسط الزحـام تشـد عينـي، أحاول أن أعدها، أقدرها بأكثر من أربعين جنيها، وأتسـاءل عما إذا كان يمكن لأحد النشالين أن يمد أصـابعه ويلتقطهـا دون أن يحس به الراكب، أقول إنـه لا يملـك الكثيـر وإلا ما وضع نقوده بهذه الطريقة فأنا عندما أقبض مرتبي فـي أول الشهر أضعه في أحرز جيوبي وأكون منتبها ، تكون كل ذرة في كياني محاذرة ومتوجسة، بل وكثيرا ما أخفيـه فـي حذائي حتى لا تطوله يد نشال ويخطر لي سؤال، مـاذا لـو

مددت يدي في الزحام والتقطت الأوراق الخضراء؟.. الأمر لا يحتاج لبراعة خاصة ويمكن أن يتم بسرعة وسهولة دون أن يحس به الراكب في تدافع الزحام، لحظة واحدة ويكـون المبلغ في حوزتي وأغادر الأتوبيس على الفور قبل أن يتنبه الرجل، وأدهش لأفكاري وخـواطري، أسـتنكرها، ولكـن الأوراق الخضراء تغازلني وتغريني وتشد عيني، أقول إنني يمكن أن أحل بها مشاكل الأيام الباقية من الشهر، يمكـن أن أستمتع بها عدة أيام، يمكن أن أحتفظ بها رصيدا لي، ستكون المرة الأولى والأخيرة، لا يعتبر اسـتيلائي عليهـا سـرقة فواضح أن فقد الراكب لهذا المبلغ لا يؤثر فيه وإلا ما وضعه بهذا الاستهتار لكن ماذا لو ضبطني الرجل أو أحد الركـاب، ستكون فضيحة، ستكون مصيبة، قد يصل الأمر إلى الشرطة وينتهي بي الأمر إلى السجن، قد ينشر الحادث في الصـحف ويقرؤه الأقارب والمعارف... محاسب ينشـل راكبـا فـي الترام! قد تطبع صورتي إلى جانب العنوان الكبيـر، لكـن يمكن ألا يحدث هذا فالنقود تلتصق بي والركـاب يتـدافعون ويتطوحون نتيجة حركة الأتوبيس، يمكن أن أجرب، يمكـن أن أمد يدي وأبعدها سريعا إذا تنبه الراكب، وأفيـق لأجـد

الرجل يبتعد ويهبط من الأتوبيس بأوراقه الخضـراء، أيـة أفكار تلك التي استبدت بي؟.. ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يهبط الراكب وأنا في حمية تساؤلاتي وترددي؟.. أية سطوة للأوراق اللعينة!!.. هل حاجتي إلى المال الكافي هي مشكلة حياتي؟.. هل اكتفاء حاجاتي المعيشية يمكن أن يحقـق لـي سعادة حقيقية؟... فؤاد يقول إنه ينبغي ألا تكون حياة الإنسان مجرد أكل وشرب ونوم، يقول إنه ينبغي أن يكون للإنسـان هدف نبيل يدفئ حياته ويعمل من أجله، حياتي أنا مجرد أكل ونوم، أكل وشرب ونوم بقلق، بهم، بعناء متصل، بخـوف، بملل بثرثرات فارغة، وكلمات فاترة كثيرا ما تكون كاذبـة، وابتسامات مصنوعة فؤاد يبدو سعيدا بحياتـه، كثيـرا مـا يضحك ضحكات فرحة، نادرا ما يتحـدث عـن مشـكلات شخصية تخصه، يبدو وكأن العالم ملك له، وكأن كل النـاس أقاربه، هل يمكن أن أكون مثله؟.. هل يمكن أن يكون لحياتي هدف كبير أعمل من أجل تحقيقه ويمنحني الفـرح؟.. مـاذا يمكن أن أفعل حتى أعيش حياة طيبة؟... فؤاد يبدو واثقًا من نفسه وجسورا، لا يخشى شـيئًا، لا يهـاب رئـيس القسـم، لا يحاذر من عيني حسن الضيقتين الخبيثتين؟.. هل يمكن أن

أربط حياتي بحياة الناس، كل الناس؟.. هل أحب النـاس؟.. ماذا يعنون بالنسبة لي؟.. لم أحس أبدا بأيـة رابطـة قويـة تشدني إليهم، فقط في ليلة التاسع من يونيه، كانت أحاسيسـي في تلك الليلة غريبة، ولا عهد لي بها، بعد أيام عدت وحيـدا كما كنت، لم أعد أهـتم بـالآخرين إلا عنـدما يضـايقوني أو يحاولون أن يسببوا الضرر لي، قد أخشاهم، قد أتـوجس منهم وأتوقع أذاهم، أحيانا أحس بالكره نحوهم جميعا، ودائما أضيق بصحبتهم، أكاد أختنق عندما تفرض علـيَّ زوجتـي زيارة أقاربها أو معارفها.. أهلها ومعارفهم كائنـات لامعـة مصقولة، غير حقيقية، دمى مزينة ومزهوة زهـوا فارغًـا وكاذبا، أمها السمينة المتصابية تضع سـاقًا فـوق أخـرى وتنطلق في الحديث بصوت ملتوٍ مصـنوع عـن الأصـل والحسب برغم أنها تدرك أنني أعـرف أصـلها وفصـلها، أعرف أن والدها كان ريفيا بسيطًا، وأن زوجها كان واحـدا من ملايين الموظفين، موظف لا يختلف كثيرا عـن أبـي، عبد من عبيد اليوم الأول من الشهر، مـن عبيـد الخدمـة العامة، كل انتصاره أنه مات قبل أن تحقق معه النيابة فـي اتهام حقيقي أو كاذب، دوما أضـيق بهـا، دومـا أضـيق

بالمصقولين اللامعين، وجودي بينهم يشنج شيئًا بداخلي، يربكني، في بيت عمي أتحرك بحرص،بحذر؛خشية أن أكسر شيئًا فأتعرض للإهانة. أحس بالراحة وأنا أتعامل مع البسطاء، كثيرا ما أحس بالتعاطف مع من يشكون إليَ همومهم، ولكن ليس لي صديق حقيقي واحد، صديق أتلهف إلى لقائه وتمنحني صحبته سعادة حقيقية.. بودي لو كان لي ولو صديق واحد.. النوافذ الصفراء البعيدة، كوى في جدار العتمة تطل على بحر من الضوء الأصفر، صياح الديك، صياح الديكة، صوت المؤذن، الدعاء الجديد النقي، النداء الذي ينادي الناس من الليل إلى النهار ويدعوهم إلى الصلاة، أبي يوقظني لأصلي معه الفجر في المسجد القريب من بيتنا، أستيقظ نشيطًا، أستشعر النشوة وأنا أتوضأ وأغتسل، ننطلق معا في الظلام، الظلام الوادع الحنون الذي يتهيأ للرحيل، الخفقات الأولى للحياة تنبض في شارعنا الصغير، نحث خطانا في شوق لاهف، في صحن المسجد أجلس إلى جوار أبي، أستشعر نداوة الفجر تتسرب إلى قلبي، تطهره، سكون المسجد العتيق سلاما عذبا حانيا يسمو بنفسي، يحررها من بقايا الليل، ومن هموم يوم فائت، أحسُ بالحب لكل المصلين،

أتبادل معهم سلاما وودا وطيبا، وأخرج مع أبي عامر النفس بالسلام، بالطمأنينة، أحسُ بأنني أصبحت أكثر رقيا وتحـررا وأنا مقبل على اليوم الجديد، أرنو إلى وجـه أبـي الطيـب المتسامح ويفيض حبي له وأغفر له كل شـيء، أتمنـى أن أكون في مثل وداعته وتسامحه، أيمكن أن أكون فـي مثـل وداعته وتسامحه، أيمكن أن تكون نهايتي كنهاية حياة أبي؟.. هل يمكن أن أكون مثله بعد عشرة أو عشرين عاما؟.. العتمة الداكنة، أين ذهب القمر؟.. يبدو أنه مال بعيدا، النجم مـازال يخفق فوق التل.. يومض.. يرتجف.. يتضاءل.. يتحول إلى رأس دبوس صغير ملتمع.. يختفي، يغوص في الظلمة، يبدو أنه لن يظهر مرة أخرى.. ها هو يطفو من جديد.. يرتعش، يبدو أنها ارتعاشات النهاية ثم تكفنه الظلمة.. ها هو يـومض ويلتمع.. ثمة شيء باهت في صفحة السماء السـوادء، كـأن وجه الظلمة قد نصل، قد بهت في مواضع متفرقـة، أهـي بدايات النهار تتسل في العتمة؟.. المساحات الباهتـة تتسـع، تتحول إلى ما يشبه البحيرات من الضوء المعتم، ضوء تتناثر فيه ذرات العتمة، نهير من الضوء الشاحب فوق التل، نهيـر صغير من ضوء نيلي، ضفافه عتمة شفيفة مضببة، الزرقـة

الداكنة تشيع في ضفاف النهير، أبدا لم أشهد نهايات الليل من قبل، لم أشهد ميلاد النهار، كثير من الأشياء والمشاهد غابت عني، كأنني أمشي مغمض العينين، كأنني لا أنتبه إلى العالم من حولي، العالم الذي أعيش فيه، الزرقة تشيع في السـماء، بحيرة من الزرقة العميقة على وجهها ضباب شفاف ممزق، قمم البيوت العالية البعيدة تبين، معالم التل تنجلي قليلاً، الخط الخارجي للتل يتضح ويتحدد، رءوس أشجار، أشجار كبيـرة وصغيرة تتفرق فوق التل، تقف ساكنة في الضـوء المعـتم، ألم أشهد هذه الأشجار من قبل؟.. لماذا لم أرتق هذا التل؟... لماذا لم أستكشف ما وراءه؟....... الملامح الخارجية البيوت تتكشف، البيوت الكبيرة كأنها كتل كبيرة داكنة علـى وجـه الزرقة العميقة، الضباب القاتم المتفرق، أشلاء العتمة الممزقة تنداح ناحية الجنوب، تكشف مزيدا من الزرقة، الزرقة النقية. بحر الزرقة يشف، يزدحم بمزيد من الضوء، .. ثمة سحابات رمادية، بيضاء متفرقة، نهير الضوء النيلي ينتشر فيه ضوء برتقالي خفي، الفجر البعيد، الرحم الدامي، والشـمس البكـر المتوهجة الظافرة، الشيء الحلو المضيء النـدي، والوجـوه المغتسلة الجديدة، فرحة اكتشاف العالم، اكتشـاف أن العـالم

رحب وحافل بالكثير الذي ينبغي أن ألتفت إليـه، أن أتاملـه وأعيشه وأسعد به، التوق إلى الرحيل، الرحيل إلـى الـبلاد البعيدة.. المصابيح الصغيرة في الخـلاء تنطفـئ، يختفـي ضوؤها الضئيل أمام ضوء النهار الزاحف، أعمدة الضـوء النحيلة تقف في حضن الفجر وادعة.. البيوت الصغيرة، تبدو جديدة برغم شيخوختها، تلـوح أشـجارها الخلفيـة غنيـة الخضرة، الجير الأبيض يزداد نصوعا، يزداد نقاء، الأنسـام الرقيقة الندية، المنعشة، الأشجار تهتـز وتتمايـل، الضـوء البرتقالي يزحف ناحية الشرق، يتحد بالزرقة النقية، صـياح الديكة.. زقزقة العصافير، السـحابات تميـل إلـى اللـون الزهري، النهير الصغير بحيرة من اللهب، اللهب الهـادئ.. عالم غريب، لماذا نثقل أنفسنا بالهم، بالخوف الذي لا مبـرر له؟.. لماذا لا نكون سعداء وأسخياء.. يمكن أن تكون الحياة طيبة برغم كل شيء، لماذا لا تكون الحياة أنبـل وأسـعد؟.. لماذا لا نخلو من الهم والخوف والقهر والعنـاء؟.. لمـاذا لا نكون أعدل وأرحم؟.. أيمكن أن توجد في زمن ما أيام سعيدة يعيش فيها الناس فرحين بالعالم من حولهم وسعداء كلهـم؟.. لو ينعم الإنسان بالأمن والراحة والرخاء، بالصداقة والحـب

هناء.. العينان الفرحتان تفيضان حبا وشوقًا البسمة الحلـوة والهمس الحنون كيف يمكن أن تمضي حياتي مـع الزوجـة التي تغط في النوم؟.... يمكن أن أعيش طـويلاً. يمكـن أن أعيش عشرين أو ثلاثين سنة أخرى... ماذا يمكن أن أفعـل في السنين القادمة؟.. فؤاد يقول إن على الإنسان أن يهتم بكل الناس، بكل الأشياء، بكل أحداث العالم حتى تكـون حياتـه أرحب وأعمق وأسعد، حتى لا تكون حياته رهنًا بأفراد قلائل وأشياء معدودة.. يقول إنه لو منح المرء حبه للناس وللعـالم وعمل من أجل عالم أفضل وأنبل فستكون فرحته وسـعادته أكثر عمقًا ودائمة التجدد، ذلك الرقيق الباسل لو أن كثيـرين مثله في عالمنا لا شك أن معه الكثيرين، أفكاره لا يمكـن أن تكون نتاج فرد واحد، ثقته بنفسه لا يمكن أن تكون مجرد ثقة بالذات.. هل يمكن أن يكون لحياتي هدف كبيـر ونبيـل؟.. أيمكن أن أستعيد أحاسيس الصبا؟... هل يمكن أن أقترب من الناس وأن أحبهم وأهتم بهم وأعمل من أجلهـم ومعهـم؟.. أيمكن أن أنظر إلى العالم- كل العالم- كشيء يخصـني؟.. لو أقيم علاقات جديدة مع أناس جدد.. لو أعيش حبا كالحب القديم.. لو أستشعر الشوق واللهفة والحنين.. لم أفقـد مـن

حياتي الكثير.. يمكن أن أبدأ من جديد.. مازلت قادرا علـى الإحساس بالمشاعر الرقيقة، مازلت قـادرا علـى اسـتعادة مشاعر وأشواق الصبا.. الوهج يشع ناحية الشـرق، ينتشـر رويدا رويدا فوق تل زهري يمتد فوق تل الأشجار، اللهـب يلون السحابات التي تتفرق على وجه بحر الزرقـة الفسـيح بلون ذهبي.. التل ينجلي تماما.. رءوس الأشـجار تتمايـل، يداعبها النسيم، أربعة طيور بيضاء تطير فوق التل، تصـعد إلى الأعالي تغتسل بضياء الفجر.. تدوم فرحة.. تطير إلـى البعيد.. تختفي.. لماذا لا أستيقظ كل يـوم مبكـرا لأشـهد الشوق؟.. لماذا لا أخرج الآن وأرتقي هذا التـل وأرى مـا وراءه؟.... لعلي أرى شروقًا كذلك الشروق البعيـد، لعلـي أستعيد الفرحة الحلوة ... ماذا أقول لها إذا استيقظت وأحست بخروجي؟.. ماذا تظن بي لو عرفت أنني سأخرج إلى الفجر لأصعد ذلك التل؟.. فلتقل ما تشاء، فلتفعل ما تشاء، لا يهمني شيء منها، ما عدت أحتملها، لو أنفصل عنهـا تمامـا، لـو أسافر إلى بلاد بعيدة أبدأ فيها حياة جديدة، الوهج يميل إلـى الاحمرار القاني، النقي، ثمة ضوء ذهبي يشع عبـر بحيـرة الوهج، سأخرج إلى الخلاء، إلى التل، إلى الشروق.

وخرج إلى الخلاء........

(انتهت)